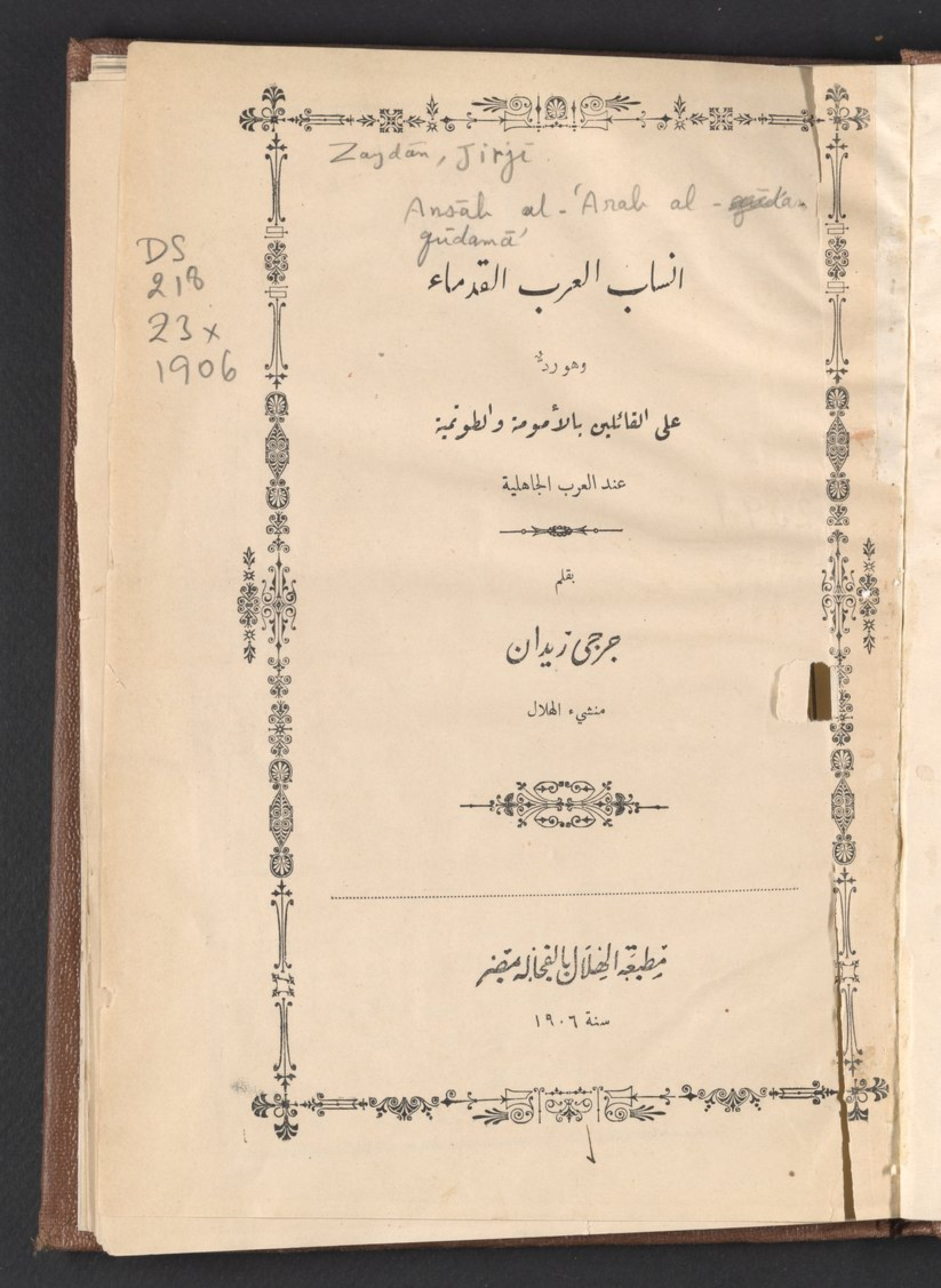


انساب العرب القدماء

وهو ردّ

على القائلين بالأمومة والطوطمية

عند العرب الجاهلية

بقلم

جرجي زيدان

منشيء الهلال

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٦

انساب العرب القدماء

ردٌّ على القائلين بالأُمومة والطَوتميَّة عند العرب الجاهلية

بيان

كتب الينا صديقنا الاستاذ مرجليوث المستشرق الانكليزي الكبير في اثناء نقله كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي الى اللغة الانكليزية كتاباً هذا نصه :

« ان بين ما جاء في كلامكم عن انساب العرب وبين آراء المستشرقين في هذا الصدد بوناً عظيماً • ولو اطلعتم على كتاب الانساب والزواج عند العرب الجاهلية للاستاذ روبرتسن سميث (Kinship and Marriage in Early Arabia) لرأيتم بين المشهور عندنا والموضوع في كتابكم فرقاً بعيداً فان مسألة الامومة مثلاً قد دون فيها مجلدات كثيرة ذهب اكثر أصحابها الى أن العائلة القديمة ليس فيها أب معلوم انما ترأسها أمٌّ كثيرة الرجال • وحقُّ الابوة أمر مستحدث ادخاله عند العرب لم يسبق عهد النبي بكثير وانساب العرب كلها اكاذيب فان أسماء القبائل ليست اسماء رجال قد عاشوا كما يزعمون بل اكثرها يشبه المسمى طوتم (Totem) عند الامم المتوحشة أعني حيواناً ينتسبون اليه لجهلهم بترتيب الطبيعة فيصدر عن انتسابهم اليه سنن وقوانين لا تخفى آثار بعضها عند العرب الجاهلية »

هذا هو نصُّ كتاب الاستاذ فنظرنا فيه نظر الاعتبار اجلالاً لمقام صاحبه وبادرنا الى كتاب روبرتسن سميث المشار اليه فاذا هو يدخل في نيف وثلاثمائة صفحة فتصفحناه ملياً رغبة في الاطلاع على ذلك الرأي وتدبره لان مؤلفه من كبار المستشرقين وله في الشرق وآدابه ابحاث ومؤلفات ذات شأن ككتابه في اديان الساميين وغيره من المقالات الشائقة • فقرأنا الكتاب باخلاص وامعان لعلنا نقتنع بصحة هذا الرأي فنرجع اليه اذ لا غرض لنا بما نكتبه الا تقرير الحقيقة فهي ضالتنا المنشودة اذا ظفرنا بها وقفنا عندها صاغرين ولا يهمنا على يد من يكون ذلك • فتحققنا من مطالعة الكتاب ما عليه الرجل من العلم والفضل وسعة الاطلاع على آداب الشعوب السامية ولغاتها واديانها وتوسمنا من خلال أدلته وسبك عبارته حجة وقوة على الاقناع يندر مثلها بين أرباب

الاقلام ولولا ذلك ما استطاع مع ضعف المذهب الذي اخذ على نفسه اثباته ان يلاقي اصغاء من جلة العلماء المستشرقين وفي جملتهم صديقنا الاستاذ مرجليوث حتى ظهر اقتناعه بذلك في مقدمة كتابه الجليل الذي صدر بالامس في السيرة النبوية (Mohammed and the rise of Islam) على ان الاستاذ المشار اليه قد اسند الراي الى صاحبه ولم يتكلف نقده اعتماداً على ما اشتهر به صاحبه من سعة العلم ولا نخاله لو تكلف ذلك الا شاعراً بما شعرنا بهِ من وهم صاحبه في تصوره على ما سنبيه في ما يلي • وقد نكون واهمين مثله لان العصمة لله وحده وانما اردنا ان نقول في هذا الموضوع كلمة نلقيها بين يدي العلماء المستشرقين ولا ندعي النجاة من الزلل بل يكفينا ان تربو مواضع الاصابة في اقوالنا على مواضع الخطأ وربما كان الامر بالعكس — على ان البحث لا يخلو من فائدة في كل حال

وبما انا سننشر هذهِ الرسالة باللغة العربية ايضاً ليطلع عليها جمهور القراء وفيهم من لا يزال خالي الذهن من الطوتم والامومة ونحوها من الابحاث الجديدة التي قلما طرقها كتاب العربية فرأينا ان نصدر الكلام بتمهيد وجيز في المراد من هذه الالفاظ ثم نتقدم الى الموضوع

الطَوتَمِيَّة Totemism

عند القبائل المتوحشة الآن

(الطوتم) هو لفظ دخل اللغات الافرنجية في اواخر القرن الثامن عشر من لغة الاوجيبي من هنود اميركا ويراد بهِ كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ويعتقد كل فرد من افراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمهُ وقد يكون الطوتم حيواناً او نباتاً او غير ذلك • وهو يحمي صاحبه وصاحبه يحترمه ويقدسه او يعبده واذا كان حيواناً لا يقدم على قتله او نباتاً فلا يقطعه او يأكله • وتختلف الطوتمية عن عبادة الحيوانات والنباتات الشائعة عند بعض تلك القبائل المعبر عنها بالديانة الفتشية ان هذه عبادة صنم بصورة حيوان وتلك تقديس نوع من انواع الحيوان او النبات او عبادته

والطوتم بالنظر الى مجموع القبائل ثلاث طبقات اولاً طوتم القبيلة وهو عام يشترك في احترامه كل افرادها ويتوارثونه • ثانياً طوتم الجنس وهو ما يختص باحترامه افراد احد الجنسين الذكور او الاناث فيكون خاصاً بنساء القبيلة او برجالها • ثالثاً الطوتم

الشخصي وهو ما يختص باحترامه الفرد الواحد ولا يرثه ابناؤه والاول احراها بالاعتبار وعليه نجعل مدار كلامنا

(طوتم القبيلة) هو حيوان او نبات او شيء آخر يشترك في تقديسه او عبادته افراد قبيلة من القبائل ويتسمون باسمه ويعتقدون انهُ جدُّهم الاعلى وانهم من دم واحد مرتبطون بعهود متبادلة ترجع الى ذلك الطوتم • وله عندهم اعتباران احدهما ديني والآخر اجتماعي فالدينيُّ يراد به ما بين الرجل وطوتمه من العلاقة المتبادلة الرجل يحترم الطوتم والطوتم يحميه ويحفظه • واما الاجتماعي فهو الحقوق المتبادلة بين افراد تلك القبيلة التي يجمعها اسم ذلك الطوتم بالنظر الى القبائل الاخرى المنسوبة الى طوتمات أخرى وقد يختلف الاعتباران في كثير من الاحوال

فالطوتم من الوجهة الدينية يعتبر ابًا للقبيلة وانها من نسله ولكل قبيلة حديث خرافي عن طوتمها يتناقلونه أبًا عن جد يغلب ان يكون مداره على كيفية انتقاله من الحيوانية او النباتية الى الانسانية) فمن قبائل الايروكوا من هنود اميركا قبيلة تعرف بقبيلة السلحفاة يعتقد اهلها انهم متسلسلون من سلحفاة سمينة استثقلت صدفتها فالقتها عن ظهرها ثم تحولت الى انسان اولد اولادًا • ومنهم قبيلة الحلزون (البزاقة) يعتقدون انهم متسلسلون من الحلزون وانثى الجند بادستر — وذلك ان حلزونًا ذكرًا خلع صدفتهُ ونبت له يدان ورجلان ورأس وتحوَّل الى رجل طويل القامة جميل الصورة فتزوج انثى الجند بادستر واولدها هذه القبيلة • وقس على ذلك قبائل تنسب الى البط او الأوز او غيرهما من الطيور المائيـة • وفي سينغمبيا قبائل تنتسب الى وحيد القرن وفرس البحر او الى العقرب او الثعبان • فكلٌّ من هذه الحيوانات يعدُّ طوتمًا للقبيلة التي تسمى باسمه وهي تحترمهُ وتقدسهُ فلا تؤذيه ولا تقتلهُ • فقبيلة البط مثلاً لا تؤذي هذا الطير ولا تقتله الاَّ اذا عضَّ احدها الجوع فيأ كل البطة وهو يأسف ويستغفر وكذلك اذا كان الطوتم نباتًا فانهم يحترمونه ويتجنبون ان يدوسوه او يأكلوه فمن كان طوتمه الذرة مثلاً فاكلها محرم عليه واذا كان الطوتم شجرة حرموا احراق عيدانها

ولا يقتصر احترامهم الطوتم على تحريم اكله او اذيته فان بعضهم يحرم لمسهُ او النظر اليه • فقبيلة الايل من قبائل الاوهاما لا تا كل لحم الايل ولا تمس ايلاً ذكرًا وقبيلة رأس الغزال لا تمسُّ جلد غزال قط وقد يحرمون التلفظ باسم الطوتم فاذا اضطروا الى ذكره عمدوا الى الكناية او الاشارة فمن هنود الدولاورس في اميركا قبيلة تنسب الى الذئب وأخرى الى السلحفاة وأخرى الى ديك الحبش فاذا اضطروا الى ذكر احدها كنوا عن الاول بالقدم

المستديرة وعن الثاني بالساحف وعن الثالث بغير الماضغ . والقبائل المذكورة تعرف بهذه الكنايات

واذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل اهلها بدفنه وحزنوا عليه حزنهم على واحد منهم فقبيلة البومة في ساموا اذا وجد احد رجالها بومة ميتة فانه يقعد الى جانبها ويأخذ في الندب والبكاء ويضرب جبينه بالحجارة حتى يدميه ثم يكفن البومة ويحملها الى المدفن كأنها بعض افراد القبيلة . ويعتقدون ان من اهان الطوتم او اساء اليه يصاب بالمصائب ويختلف اعتقادهم ذلك باختلاف القبائل او البلاد . فبعضهم يعتقدون ان من يأكل طوتمة تصبح نساء قبيلته عواقر وغيرهم يعتقدون انهم يصابون بالامراض او النكبات او نحو ذلك ويتوهم آخرون ان آكل طوتمه يجازى بالموت بان يقيم الطوتم في بدنه ولا يزال يأكل منه حتى يموت

ويؤمنون من الجهة الاخرى ان الطوتم لا يؤذي صاحبه فالذين طوتمهم الحية مثلاً لا يخافون لسعها وعندهم ان الحية لا تلسعهم وكذلك قبائل العقرب في سينغمبيا فهم على ثقة ان العقرب السامة تمر على جسم احدهم ولا تؤذيه . وقس على ذلك قبائل الذئاب ونحوها وكثيرًا ما يمتحنون بذلك قرابة من يدعي انتسابه الى احدها فمن زعم انه من قبيلة الثعبان اطلقوا عليه الثعبان فاذا لسعه قالوا انهُ مدعٍ كاذب وعلى هذا المبدا ينبذون كل من لا يراعي الطوتم جانبه ويتجنب اذيته

على انهم لا يكتفون من الطوتم ان يكف اذاه عن اصحابه او عباده ولكنهم يتوقعون ان يحسن اليهم ويدافع عنهم . فتعتقد قبيلة الذئاب ان الذئاب تدافع عنها في ساحة القتال ويتوهم اكثر اصحاب الطوتمية ان الطوتم ينذر اصحابه بالخطر قبل وقوعه بعلامات او رموز على نحو ما يعبر عنهُ بالفأل او الطيرة

ومما يتقربون به الى الطوتم ابتغاء رضاه وحمايته ان يتشبهوا بهِ فيقلدونهُ بشكله ومظهره ويلبسون جلده او قسماً من جلده او يتخذون جزءًا منه يعلقونهُ في اعناقهم او اذرعهم على نحو التعاويذ في الأمم الأخرى فلا يخلو فرد من تعويذة تدلُّ على علاقته بطوتمه

ومن عاداتهم الدالة على اعتبارهم انفسهم من نسل الطوتم ما يجرونه من الاحتفال عند الولادة او الزواج او الوفاة ونحوها من الاحوال . فقبيلة الغزال الاحمر مثلاً اذا ولد لهم طفل نقشوا ظهره بالحمرة واذا كان من قبيلة الذئب صاحت الولائد عند وضعهِ « قد ولد لنا ذئبٌ صغير » ويخيطون بقميص الطفل قطعة من عين الذئب او قلبهِ . واذا تزوج واحد

من قبيلة الكلب الاحمر في جاوى دهنوا العروسين برماد عظام كلب احمر وقس على ذلك سائر القبائل بما ينتسبون اليه من انواع الطوتم ويحتفلون نحو هذه الاحتفالات عند الوفاة او الزواج

اما الطوتم الجنسي فيراد به اختصاص ذكور القبيلة او اناثها بطوتم خاص . فبعض القبائل في اوستراليا لذكورها طوتم ولاناثها طوتم آخر وكلاهما غير طوتم القبيلة وكذلك الطوتم الشخصي فان الرجل قد يكون له طوتم خاص به غير طوتم القبيلة وغير الطوتم الجنسي

اما طوتم القبيلة من الوجهة الاجتماعية فيراد به تعاقد اهل القبيلة فيما بينها باعتبار علاقتها بالقبائل الاخرى فاهل الطوتم الواحد يعدُّون اخوة واخوات يتعاونون في السراء والضراء بروابط هي اشدُّ مما بين افراد العائلة الواحدة اليوم . فيتزوج الرجل بامرأة من غير قبيلته وطوتم غير طوتمه وربما نشأ الاولاد على طوتم آخر فاذا انتشبت حرب تعاون اهل الطوتم الواحد على اصحاب الطوتم الآخر فينفصل الرجل عن زوجته والولد عن ابيه أو أمه

ومن شروط الطوتمية ان رجال الطوتم الواحد لا يتزوجون نساء من قبيلتهم ولا النساء برجال منها وهو ما يعبر عنه علماء العمران بالزواج الخارجي (Exogamy) ويعتقد اصحاب الطوتم ان التزاوج في نفس القبيلة مضرٌّ بالصحة حتى ينخر العظام ويعاقبون من يقدم عليه بالموت او العذاب الأليم ولذلك فهم يتخذون نساء من القبائل الاخرى بالغزو او المراضاة او نحو ذلك والاولاد يرثون على الغالب طوتم امهاتهم فكأن النسب يتصل بينهم بالامهات وليس بالآباء كما هو المعهود بيننا

وقد تتفرع القبيلة الى بطون وافخاذ تنسب الى آباء من الحيوان او النبات بينها نسبة تفرعية مثل تفرع الحيوان الى الانواع وما تحتها من الفصائل والتباينات او بعلاقة أخرى بين طوتم القبيلة وطوتمات الفروع كان يكون طوتم القبيلة حيواناً وطوتم فرعها نباتاً يأكله ذلك الحيوان مما لا سبيل الى بسطه

والطوتمية منتشرة الآن في العالم المتوحش فهي عامة بين قبائل اوستراليا وكثيرة الانتشار في شمالي اميركا وفي بناما والطوتم الشائع هناك « الببغاء » ولا تخلو اميركا الجنوبية من آثار الطوتمية على حدود كولمبيا وفنزويلا وفي جيانيا وبيرو . وللطوتمية شأن كبير في فريقيا فانها شائعة في سينغمبيا وبين قبائل البقالي على خط الاستواء وعلى شاطىء الذهب الاشانتي وبين الدامارية والبكوانية في جنوبي افريقيا وفي اماكن كثيرة من تلك القارة المظلمة . ولها آثار في مداغسكر وبعض جزر ملقا . اما في اسيا فلها اثر في اواسط الهند بين بعض قبائل البنغال غير الآريين وفي سيبيريا وبعض جهات الصين وجزائر المحيط —

واكثر هذه القبائل ادخلها العلماء في الطوتمية بالقياس التمثيلي لانها تقدس بعض الحيوانات او النباتات وان لم تتسمَّ باسمائها

﴿ الخلاصة ﴾ فالطوتمية تلخص في ما يأتي :

(١) انها شائعة الآن بين اكثر الامم اعراقاً في الوحشية

(٢) ان قوامها اتخاذ القبيلة حيواناً او نباتاً او شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة ابًا لها تعتقد انها متسلسلة منه وتتسمى باسمه

(٣) ان كل قبيلة تقدس طوتمها او تعبده

(٤) تعتقد كل قبيلة ان طوتمها يحميها ويدافع عنها أو هو على الاقل لا يؤذيها وان كان الأذى طبعهُ

(٥) الزواج ممنوع بين اهل الطوتم الواحد واساس التناسل عندهم التزوج ببنات من اصحاب الطوتمات الاخرى (الاكسوجامي)

(٦) ان الابوَّة ضائعة عندهم ومرجع النسب الى الأم

(٧) لا عبرة عندهم بالعائلة وانما القرابة تنتهي الى الطوتم وأهل الطوتم الواحد اخوة واخوات يجمعهم دمٌ واحد

﴿ اصل هذا المذهب ﴾ ومذهب الطوتمية بالنظر الى نظام الاجتماع حديث اول من قاله الدكتور مكلينان الباحث الاجتماعي الانكليزي المتوفى سنة ١٨٨١ فانهُ الف في هذا الموضوع كتابهُ الزواج عند القدماء (Primitive Marriage) ونشره للمرة الاولى سنة ١٨٦٥ ثم كتب كتباً كثيرة في هذا الموضوع وما يتفرع عنه نشر فيها اصل مذهبه والقواعد التي بنى عليها رأيه في الطوتمية . ولم يكد ينشر رأيه حتى تصدى علماء الاجتماع لانتقاده وفي مقدمتهم الفيلسوف سبنسر والسير جون لبك العالم الاجتماعي الشهير ولا سيما الاول فانه افاض في نقد هذا المذهب بكتابه « أصول العمران » وكتاب « اصول التمدن » وغيرها مما لا شأن لنا به وانما ننظر الآن في الامر من حيث ما يهمنا ونغض الطرف عن صحة هذا المذهب او فساده ونبحث في ما اراده الاستاذ روبرتسن سميث من تطبيقه على العرب قبل الاسلام

﴿ رأي سميث في طوتمية العرب ﴾ يرى سميث ان العرب كانوا في اقدم ازمانهم ينتسبون الى آباء من الحيوانات أو النباتات كانوا يعبدونها أو يقدسونها ويتسمون باسمائها وكان شأنهم في الزواج والامومة وغيرها مثل شأن القبائل المتوحشة في اوستراليا واميركا

وافريقيا وان المشهور من انتساب العرب الى اسماعيل وقحطان من آباء التوراة وتسلسل القبائل على الصورة المعروفة انما هو حادث وضعه اهل الاغراض في زمن حديث لا يتجاوز القرن الاول للهجرة مبنياً على ديوان الامام عمر بن الخطاب من حيث حقوق المسلمين في العطاء بالنظر الى القبائل وانسابها (صفحة ٦ من كتابه)

ولتأييد هذا الرأي بدأ اولاً باثبات الامومة عند العرب فقال ان العرب في الزمن القديم لم يكن عندهم عائلة رئيسها الاب ولا كانت الانساب تتصل بالآباء بل كان الزواج عندهم نحو ما هو في بلاد تيبت اليوم ويعرف بالزواج التيبتي وذلك ان المرأة تتزوج برجلين فاكثر واولادها لا ينتسبون لاحدهم وانما ينتسبون الى القبيلة ويسمون بطوتمها كما تقدم . فعمد اولاً الى ايراد الادلة على اثبات الامومة وشيوعها عند العرب القدماء ولما ظن نفسه اثبتها عمد الى اثبات الطوتمية فبذل قصارى جهده في استخراج الادلة والشواهد مما سنفصله ونبين وجه الخطأ فيه

٢ — العرب القدماء وانسابهم واخبارهم

وقبل التقدم الى البحث في ادلة الاستاذ سميث نقول كلمة اجمالية في العرب وانسابهم ورواياتهم تمهيداً للبحث :

ان من يطالع رأي صاحب طوتمية العرب ومن يقول قوله من المستشرقين يدرك لأول وهلة انهم انما حملهم على ذلك امران الاول ضعف ثقتهم باقوال مؤرخي العرب وبما حفظ من خرافاتهم القديمة والثاني نهوض اهل القرن الماضي لتحدي ما ثبت من مذهب الارتقاء في قواعد العمران لان شيوع هذا المذهب في اواسط ذلك القرن حمل ادباء الافرنج على رد كل شيء الى اسباب طبيعية كما فعل سبنسر في رد العبادات واكثر العادات الى مثل هذه الاسباب . وهكذا اراد صاحب طوتمية العرب فانه لما اطلع على ما كتبه مكلينان عن الطوتم في القبائل المتوحشة — وهو مستشرق مطلع على اخبار العرب سيء الظن في جاهليتهم يحتقر اقوال رواتهم ونسابيهم — ورأى بين اسماء آباء القبائل والبطون ما يشبه اسماء الحيوانات سبق الى وهمه انها من آثار الطوتمية عندهم . فوضع هذا الحكم نصب عينيه واخذ على نفسه ان يبرهنه . ولما كانت الطوتمية مبنية على الامومة عمد الى اثبات هذه فاتى بادلة ضعيفة تجاوز بها حد التكلف واستشهد بنوادر من اخبار العرب فجعل الشاذ قاعدة واغفل القواعد العامة الثابتة التي اجمع عليها النسابون والرواة مما يخالف

اصول البحث . وهذا غريب من عالم اطلع على اخبار الامم وخرافاتهم وعلم ان التاريخ القديم اكثره مأخوذ من الخرافات المأثورة عن الاسلاف يمحصونها من الاكاذيب ويستخرجون صحيحها من فاسدها فلا يحتقرون خرافة ولا ينكرون قولاً . فان ما في الياذة هوميروس من اخبار الآلهة وخرافاتهم لم يمنع العلماء من تمحيصها والتمييز بين التاريخ والدين والخرافة فيها . ويقال نحو ذلك عن اخبار الهنود القدماء منذ نزل جماعة الآريين الى بلاد الهند على ما هو مدون في كتبهم السنسكريتية . وهكذا ينبغي ان يقال في خرافات العرب من اخبار عاد وثمود وطسم وجديس واخبار سيل العرم ونحوها . فانها مع بعدها عن مألوفنا لا تخلو من حقائق تاريخية ذات بال قد كشف الزمان صدق كثير منها فناتي بشذرات من ذلك على سبيل المثال :

عاد وثمود

ان اعرق خرافات العرب في القدم وابعدها عن المألوف اخبار القبائل البائدة . وما زال الباحثون الى عهد غير بعيد يعدُّونها من الخرافات الموضوعة قبيل الاسلام وظنها آخرون لبعض الامم الاخرى وقد حفظها العرب ونسبوها لانفسهم . ثم تبين لهم انها لا تخلو من حقيقة ثابتة لما وجدوه من ذكرها في كتب مؤرخي اليونان او جغرافييهم القدماء كاسترابون وبطليموس وغيرها . واهمّ القبائل البائدة عاد وثمود . اما عاد فقد كان المظنون انها لم تذكر في كتب اليونان لانهم لم يعثروا بين اسماء قبائل العرب على لفظ يشبهها ولكننا بيَّنَّا في مقالة لنا بهذا الموضوع (الهلال ٢٣ سنة ٦) انهم ذكروها باسم « عاد ارم » فكتبوها Adramitae تمييزًا لها عن حضرموت واسمها عندهم Xatramotitae ورجحنا هناك انها وقبيلة هدورام المذكورة في التوراة بين العرب القاطنين بلاد اليمن قبيلة واحدة

اما ثمود فقد ذكرت مرارًا في كتب اليونان والرومان وعثروا على آثارها في اعالي الحجاز وحلوا بعض ما نقش على احجارها وكانوا مع ذلك يحسبون تاريخها لا يتجاوز في القدم ما وراء تاريخ الميلاد الاَّ قليلاً حتى عثر النقابون على ذكرها في انقاض اشور حوالي القرن الثامن قبل الميلاد[1] في عرض اخبار الحروب والفتوح مما يدل على ان تلك القبيلة كانت ذات شان في هذا العهد . وقس على ذلك سائر اخبار القبائل البائدة مما ضاع خبره لتقادم عهده او اشتبه اسمه عند اليونان بالتصحيف او نحوه كما اصاب قبيلة « جديس » فان اليونان كتبوها Jolisitai والغالب في اصلها على اعتقادنا Jodisitai بابدال الدال

(1) Glaser Sk. der Geschichte und Geographie Arabiens II. 259

لاماً وهما متشابهان في اللغة اليونانية فاللام تكتب هكذا Λ والذال هكذا Δ وقس عليه

ناهيك بما يؤيد اخبار العرب وانسابهم من نصوص التوراة وما عثروا و يعثرون عليه في آثار اليمن وغيرها

النسابون العرب

اذا كان هذا شان خرافات العرب القديمة فكيف باخبارهم المدونة في الكتب مما اجمع عليه النسابون في صدر الاسلام والرواة يومئذ لا يقبلون رواية الاّ بعد تحققها بالاسناد الصحيح لما تعوّدوهُ من تحقيق الاحاديث النبوية أو نحوها من الاخبار الدينية في ذلك العصر . فالعرب يعدُّون من اكثر الامم تحقيقاً في الرواية وا كثرهم تدقيقاً في حفظ ما يروونهُ ولاسيما في صدر الاسلام لاعتمادهم على الذاكرة واغفالهم الكتابة لاسباب بيّناها في الجزء الثالث من كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي

ولا ننكر ما يتخلل تلك الروايات من الامور الموضوعة او المختلف فيها او غير المعقولة ولكن لا يعقل ان تكون كلها موضوعة اذ لا يتأتى التواطؤ الى هـذا الحد . وان جاز لنا تصديق هذا التواطؤ لم يكن لنا بدٌّ من السؤال عن الزمن الذي حصل فيه قبل الاسلام أو بعدهُ ؟ فاذا قيل قبل الاسلام فما الذي دعا الى حصوله ولا نعلم سبباً يدعو الى ذلك ولانظن صاحب طوتمية العرب يعلم . واذا قيل بعد الاسلام وهو رأيهُ — فقد زعم ان النسابين وضعوا الانساب في صدر الاسلام فقسموها الى قحطانية وعدنانية وقسموا كلاً منها الى فروع . وان الغرض من هذا التقسيم بيان حقوق القبائل بالنظر الى العطاء الذي فرضهُ عمر — فكيف يجوز ذلك وهذه اشعار العرب الجاهلية واقوالهم وامثالهم واخبارهم شاهدة بمحافظتهم على النسب وعنايتهم بالرجوع الى اجدادهم من قحطان وعدنان ؟ بل كيف يقال هذا والاسلام من ظهوره الى انتشاره مبني على النسب القحطاني والعدناني والخلفاء يحرضون المسلمين على حفظ انسابهم والتدقيق فيها . ومن اقوال عمر بن الخطاب « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن اصله قال من قرية كذا » (١) فهل يصحُّ ذلك والعرب قبائل طوتمية لا رابطة بينها ولا نسب ؟

واذا افترضنا صحتهُ وان النسابين وضعوا هذه الانساب في اول الاسلام للعطاء فكيف ترضى القبائل التي ابعدها النسابون عن النسب النبوي فقلَّ عطاؤُها او ضعفت حقوقها و كيف لا تحتجُّ على ذلك بل كيف لا يشمُّ رائحة ذلك الاحتجاج من كلام المؤرخين ؟ على ان

(١) ابن خلدون ١٠٩ ج ١

تواطؤ النسابين على الوضع بعيد الامكان لانهم لم ياتوا بشيء من عند انفسهم وانما كانوا يطوفون البادية ينقلون النسب عن السنة الحفاظ ويدونونه او يحفظونه . وقد يجمع النسابة اخباره من اهل نجد والحجاز واليمن بالسؤال من الثقات في تلك الاصقاع المتباعدة الاطراف فهل يمكن تواطؤهم على ذلك ؟

الشعوبية وانساب العرب

واذا سلمنا بامكانه وان العرب لم يبدوا معارضة احتراماً للخليفة او خوفاً منه فكيف سكت الشعوبية ولا سيما الفرس عن هذا الاختلاف مع ما يفاخرهم به العرب من شرف النسب العربي والشعوبية يبحثون عن حجة يضعون بها من شرف العرب المتصل اليهم من انتسابهم الى اسماعيل وقحطان — وقد تجرأ الفرس في صدر الاسلام حتى نسبوا العرب الى الوحشية وقالوا « انهم كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض فرجالهم موثقون في حلق الاسر ونساؤهم سبايا مردفات على حقائب الابل » (١) ولم يطعن احد منهم بنسبهم تلميحاً ولا تصريحاً ولو استطاعوا ذلك لكان فيه اقوى انتقام لهم . ولا يقال انهم سكتوا عنه اهمالاً او انهم لم ينتبهوا له فقد طعنوا في اختلاف العرب بالنسب وفي استلحاقهم الادعياء ونحو ذلك مما يتعلق بالانساب — قال بجير يعير العرب باستلحاق الادعياء

زعمتم بان الهند اولاد خندف ... وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل ... وبرجان من اولاد عمرو بن عامر
بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم ... وأولى بقربانا ملوك الاكاسر
أتطمع في صهري دعياً مجاهراً ... ولم تر ستراً من دعي مجاهر
وتشتم لؤماً رهطه وقبيله ... وتمدح جهلاً طاهراً وابن طاهر (٢)

ومع ذلك لم يتعرضوا لصحة انسابهم أو فسادها . وامة الفرس بلغت أوج تمدنها قبل الاسلام بقرون وكان العرب ينزحون اليهم ويقيمون بينهم وجرى لهم معهم حروب ومناقشات قبل الاسلام وقد استولى الفرس على اليمن واقاموا بين ظهراني العرب وعاشروهم وخالطوهم قبيل الاسلام — فهم اولى الناس بمعرفة احوالهم في جاهليتهم فلو وجدوا في ضبط انسابهم شكاً ما سكتوا عنه وقد بدأوا بالنقمة عليهم من اوائل القرن الاول للهجرة . واغرب من ذلك ان النسابين انفسهم كان اكثرهم من العجم فهل يضعون شيئاً يكون سلاحاً عليهم

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١٣٥ ج ٤ (٢) العقد الفريد ٧١ ج ٢

في ايدي اعدائهم ؟

اختلاف بعض الانساب

فكلُّ ما لدينا من اخبار العرب يرجع الى ترتيب النسب على ما ذكروه في كتبهم أو رووهُ في اشعارهم وليس عندنا ما يخالف ذلك الترتيب نصاً ولا اشارة فكيف يجوز لنا نقضه ؟ ولا عبرة فيما ذكره صاحبنا من اختلاف النسابين في نسبة بعض القبائل الى قحطان أو عدنان أو الى قيس او كلب أو نحو ذلك لان النسب كما قدمنا منقول في الاصل عن افواه الناس على اختلاف الاصقاع — والانسان عنوان الخطاء · ولا يخلو ان يكون ديوان عمر ابن الخطاب وفرض العطاء على النسب أوجب بعض التشويش وانتماء بعض البطون الى غير قبائلها والنسابون المحققون يبينون الصحيح من الفاسد على ما يبلغ اليه امكانهم · ولكن وجود هذا الاختلاف لا يدلُّ على فساد النسب من اساسه كما ان اختلاف الرواة في تفاصيل احدى الوقائع التاريخية لا يدلُّ على انها لم تقع · فلو اختلف جماعة في فتح عمرو ابن العاص مصر فقال احدهم انهُ فتحها صلحاً وقال آخرون انه فتحها عنوة وقال غيرهم انهُ جاءها باربعة آلاف مقاتل وقال آخرون بل جاءها بعشرة آلاف واختلف آخرون في هل جاءها العرب على الخيل أو على الابل — فهل يدلُّ ذلك على ان مصر لم تفتح واذا قال ذلك قائل الا ننسبهُ الى الشذوذ في احكامه ؟

على ان اختلاف النسابين قد يكون سببهُ تشابه القبائل بالاسماء لفظاً واختلافها معنىً وهذا كثيرٌ في انسابهم قد وضع لهُ النسابون كتباً مستقلة ككتاب مختلف القبائل ومؤتلفها لابي جعفر محمد بن حبيب المتوفى في أواسط القرن الثالث للهجرة وقد طبع في غوتنجن سنة ١٨٥٠ ولو راجعت معجمات القبائل لرأيت عدة منها باسم واحد بعضها من قحطان والبعض الآخر من عدنان وفيها بطون من اليمنية وبطون من القيسية : فبنو اسد بطن من الازد من كهلان من القحطانية وبنو اسد ايضاً بطن من قضاعة من حمير وبنو الاوس بطن من الازد من القحطانية وبنو الاوس بطن من العدنانية وبنو الحرث عدة بطون من قبائل مختلفة وبنو بكر عدة بطون بعضها من العدنانية والبعض الآخر من القحطانية وبنو تغلب حي من وائل بن ربيعة من العدنانية وبنو تغلب بطن من قضاعة من القحطانية · وبنو تميم من طابخة من العدنانية وبنو تميم بطن من هذيل من العدنانية · وبنو ثعلبة بضعة عشر بطناً من قبائل مختلفة (١) ومثلهم بنو ربيعة وبنو سليم وبنو عامر وبنو عدي وبنو كعب وغيرهم ·

(١) نهاية الارب في قبائل العرب (خط)

فالاسم الواحد تشترك فيه عدة بطون ترجع الى اصول مختلفة · وقد وجدوا بطوناً كثيرة باسم بني امية ففي قريش امية بن عبد شمس بن عبد مناف وفي اياد بن نزار أمية بن حذافة وفي الانصار امية بن زيد بن مالك من الأوس وفي طي أمية بن عدي بن كنانة بن مالك وفي قضاعة أمية بن عصبة بن هصيص وقس عليه

وقد تتشابه اسماء القبائل صورةً وتختلف لفظاً ومعنى مثل جسّاس بسين مشددة وجساس بسين مخففة واكثر ما يكون الاشتباه في الاسماء المتشابهة بصور الحروف مع غض الطرف عن النقط وقد كان ذلك سبباً كبيراً للالتباس قبل الاسلام وفي صدره · ففي مذحج عنس بالنون ابن مالك بن ادد وفي غطفان عبس بالباء ابن بغيض وفي الازد عبس بالباء ابن هوازن بن اسلم · وقس عليه عنزة فانها بهذا اللفظ في ربيعة وهي عنزة بن اسد بن ربيعة بن نزار · وفي خزاعة عيرة بالياء و يقال ايضاً عنز وفي الازد عنترة بن عمرو ابن عوف بن عدي بن الازد وفيها ايضاً عبرة بالباء اما مضمومة العين او مفتوحتها ومنها غيرة بالغين والياء باختلاف الحركات · ومن هذا القبيل عنز من ربيعة وعتر من ربيعة ايضاً ومثلها غبر وقس على ذلك اجرم واخزم واحرم وكل منها من اصل غير اصل الأخريين(١)

فهذه الاختلافات بالصورة واللفظ اوجبت بعض الالتباس في انساب القبائل · ويقال نحو ذلك في قلة عدد الآباء بالنظر الى الزمن فقد يكون سببه ضياع بعض الاجداد لنسيان اوغيره او اعتبار الجد قبيلة برأسها وليس رجلاً فرداً كما هو المظنون في بعض اجداد اليهود اباء التوراة · وهذا ايضاً من الادلة على قدم الانساب من عهد الجاهلية اذ لو وضعها واضع بعد ذلك لاتقن صناعة التزوير واكثر من الاباء حتى لا يبقى مكان لظهور التزييف ولكن النسابين لم يأتوا بشيء من عند انفسهم وانما نقلوا ما كان شائعاً على السنة العرب محفوظاً في اذهانهم على علاته

وزد على ذلك ان من القواعد الاساسية في تمييز الحقوق « ان الاصل براءة الذمة » فالاصل في انساب العرب ان تعتبر كما وصلت الينا ولا يجوز لنا الاعتراض عليها او نقضها الاّ بما لا يقلّ ثقة عن النصوص الصريحة والقرائن الثابتة بالتواتر او نحوه · اما الاعتماد على الاقوال النادرة او الرجوع الى شوارد الاخبار واتخاذ الشواذ قواعد فلا يصح الاعتماد عليه او هو استقراء ناقص بل هو ليس من الاستقراء في شي وانما هو من قبيل التحكم على خلاف القاعدة المتبعة في البحث والنقد · والاقرب الى الصواب في اثبات قضية ان نتدرج

(١) مختلف القبائل ومؤتلفها

فيها من الجزئيات الى الكليات فمتى ثبتت الجزئيات ثبتت الكليات واما صاحبنا فانه افترض القضية الكلية وحاول اثباتها فلم يعدم من الحوادث المبعثرة من اخبار العرب ما يتخذه اساساً يبني عليهِ بناء ضعيفاً يظهر ببراعته كانه صحيح

فالاستاذ روبرتسن سميث صاحب طوتمية العرب اطلع على رأي مكلينان في طوتمية هنود اوستراليا واميركا ونحوها ورأى لبعض قبائل العرب اسماء حيوانية ووجد النسابين مختلفين في اصول بعض القبائل فتبادر الى ذهنه انها بقايا الطوتم كما قدمنا فوضع القضية الكلية « ان العرب كانوا من اصحاب الطوتم » ثم اخذ يبحث في كتبهم عما يؤيد هذا القول ولا يخفى عليك ماهنالك من النوادر الشاذة والحوادث المتضاربة فاختار ماظنه يؤيد قولهُ واغفل الباقي • فلو كان السير على هذه الخطة في الاستدلال والبرهان جائزاً لما اعجزنا اثبات اي قضية فرضناها مهما يكن من غرابتها — فلو اردنا الذهاب الى ان المرأة في الجاهلية كانت مطلقة الحرية ذات شأن في الهيأة الاجتماعية مثل شأنها في اميركا اليوم لما عدمنا من اخبار العرب ما يسند هذا القول • وكذلك لو قلنا انها كانت تعامل عندهم معاملة البهائم فاننا نجد مايشاكل زعمنا • ولكن القاعدة في مثل هذا البحث ان ينظر في مجمل الادلة ويؤخذ الراجح بالاجماع او الاغلبية ولم يجمع العرب في اخبارهم او خرافاتهم او اشعارهم او تواريخهم او عاداتهم على شيء مثل اجماعهم على تلك الانساب افننكرها بمجرد الظن ؟ وهل يزال اليقين بالشك — ثم نلتفت الى رأي ليس في اخبار العرب ولا في تواريخهم ولا تواريخ سائر الامم السامية ما تشم رائحته منه

ثم ان تلك الانساب وصلت الينا بالتسلسل من النسابين الى المؤرخين على اختلاف اماكنهم وعصورهم وهي مع ذلك مطابقة في اكثر رواياتها فكيف تتفق هذه المطابقة ان لم يكن اصلها صحيحاً • وان قيل ان ذلك الاصل وضع بعد الاسلام فلا بدّ من ان يكون واضعه رجلاً ذا سلطان فمن هو هذا يا ترى ؟ وكيف يخفى خبره مع كثرة اعداء العرب في ذلك العصر

والصحيح ان النسب قديم عند العرب مثل قدمه عند سائر الامم السامية والعرب اشد تمسكاً بهِ لبداوتهم وتنقلهم مع فراغ ايديهم من جامعة أخرى يرجعون اليها • وقد بالغوا في المحافظة على الانساب حتى حفظوا انساب خيولهم الى اجيال كثيرة فيلحقونها بما اشتهر منها في اللحاق او السباق من خيل الجياد كاعوج والوجيه ولاحق

والغراب واليحموم [١] • ولو راجعت ما وصل الينا من اخبار النسابين لعجبت بعنايتهم في حفظ الانساب وتدقيقهم في ضبطها • وكان احدهم اذا نسب واحداً تتبع نسبه من ابيه الى رهطه فالفصيلة حتى يصل الى القبيلة او بالعكس من القبيلة الى الفرد

الشعوب السامية

وقد ذهب صاحب طوتمية العرب في مقدمة كتابه « اديان الساميين » وفي كتاب « انساب العرب » الذي نحن في صدده (صفحة ١٧٨) ان الساميين نشأوا اولاً في جزيرة العرب ثم تفرعوا فخرج العبرانيون والاراميون منها وعمروا ما حولها من البلاد وظلّ العرب فيها على بداوتهم فكان ينبغي ان تكون الطوتمية عندهما كما هي عند العرب • ولكنهُ لم يقل ذلك واذا قاله فلانظنه يتوفق الى ما يسند قوله ولو بالظاهر مثل توفقه في طوتمية العرب لان اليهود قلما تسموا باسماء الحيوانات لبعدهم عن البداوة الخشنة فلا يجد بين اسماء القبائل ما يساعدهُ على هذا الزعم • وهب انه توفق الى بعض الاسماء كما توفق الاستاذ كوك في مقالة نشرها بالمجلة الاسرائيلية الانكليزية منذ عامين [٢] مثل كالب و يعقوب وعورب — فهي اسماء اشخاص لا اسماء قبائل ولا يصح الرجوع اليها في اثبات الطوتمية

على انهُ لو ترك الافتراض والظن ونظر في الامر على بساطته لرأى هذه الامم السامية تتشابه في امر حقيقي واضح لا التباس فيه وهو الانتساب الى آباء التوراة وانتساب العرب الى اسماعيل وقحطان ثابت مما جاء في التوراة من انساب الامم اذ يظهر للمتأمل ان انساب العرب فرع من انساب الساميين وقد حقق ذلك واثبته جورج رولنسن في كتابه اصل الامم [٣] وادوار كلازر في كتابه تاريخ العرب وجغرافيتهم [٤] ولنا مقالة في انساب العرب منشورة في الهلال العشرين من السنة الخامسة بينا فيها انساب القبائل البائدة فضلاً عن القبائل الباقية بالاسناد الى التوراة ومؤرخي العرب والتوفيق بينهما و بين الآثار الاكتشافية ونصوص مؤرخي اليونان

فالنسب العربي ثابت بثبوت انساب التوراة مع اعتبار ما يراه اهل النقد من الباحثين ان اسماء بعض الآباء الأولين يراد بها القبائل لا الاشخاص فاذا نقضنا هذه لم يبق بيدنا شيء • وهل يجوز ان نغفل هذه الانساب الثابتة بتوالي القرون ونرجع الى رأي لا اساس

(١) الكامل للمبرد ٤٥٤

(٢) The Jewish Quarterly Review

(٣) Rawlinson's Origin of Nations 228

(٤) Glaser Gesch. & Geogr. Arabiens II. 266 & 424

له في كتب المشارقة ولا اشارة اليه في خرافاتهم ولا عاداتهم ولا اديانهم ولا شيء من آثارهم ؟

ومما لايحسن الاغضاء عنه ان العرب لا يصح قياسهم في احوالهم وانسابهم باصحاب الطوتم من الامم المتوحشة من هنود اوستراليا واميركا وزنوج افريقيا لان العرب من ارقى الامم عقلاً ونفساً وهم اهل تمدن قديم مثل تمدن ارقى الشعوب القديمة وقدذهب بعض الباحثين في آثار اليمن وحضرموت ان التمدن العربي القديم اصل التمدن المصري القديم اي ان الفراعنة اخذوا تمدنهم من بلاد اليمن — ومهما يكن من منزلة هذا القول من الصحة فانه يدل على اعراق العرب في المدنية منذ آلاف من السنين . دع عنك ارتقاء لغتهم في تركيبها والفاظها وهو يشهد بارتقاء عقول اصحابها من اقدم ازمنة التاريخ وقبله فهل يعقل ان يتخذوا آباء من النبات او الحيوان كما يفعل اعرق الامم وحشية اليوم ؟ على ان القول بالطوتمية بحد ذاتها من الغرابة بحيث يصعب علينا تصديق وجودها في الامم المتوحشة ونخشى ان يكون القول بها مبنياً على الاستقراء الناقص . ولنتقدم الآن الى النظر في ادلة صاحبنا فننظر في ما يختص منها بالامومة ثم ما بناه عليها من الطوتمية عند العرب فنقول :

٣ — الأمومة عند العرب

الامومة على الاجمال

الامومة الانتساب الى الام ويراد بها انتساب اهل القبيلة او الامة الى امهاتهم بدلاً من آبائهم فيقال فلان بن فلانة كما يقال في الابوة فلان بن فلان والامومة من الابحاث التي حدثت في أواسط القرن الماضي بعد شيوع مذهب الارتقاء واول من استلفت الانظار اليها عالم الماني اسمه باخوفن في كتاب نشره سنة ١٨٦١ فاهتم به علماء العمران لاختلافه عما تعودوه من نظام العائلة المألوف . ومرجع بحثه ان الامومة سابقة في تاريخ العائلة للابوة فعنده ان الزواج كان عند الاقدمين فوضوياً بلا شرط وهو زواج المشاركة . فاذا ولدت بعض النساء غلاماً لا يمكن تعيين والده وهو ملازم امه للرضاع فينتسب اليها ويعرف بها فيصير الانتساب الى الامهات قاعدة عامة فأصبح للمرأة المقام الاول في الهيأة الاجتماعية وهي صاحبة النفوذ كما هو حال الرجل اليوم

ثم ظهر كتاب مكلينان الانكليزي في الزواج عند القدماء Primitive Marriage

نشره سنة ١٨٦٥ فذهب في الامومة مذهباً جعل اساسه الزواج الخارجي اي تزوّج الرجال بنات من غير قبيلتهم بالغزو لقلة البنات عندهم بالوأد (على زعمه) فنشأ عن ذلك في اعتقاده زيادة عدد الرجال فاضطر كل جماعة منهم الى الاكتفاء بامرأة واحدة وهو تعدد الازواج وانحصر النسب في الام وعلت منزلتها . وهو قول ضعيف الاسناد متناقض المعنى — كيف يمكن حفظ النسب بالامهات وكل منهنَّ مجلوبة من الخارج ولها نسب خاص ؟ على ان مذهب مكلينان في اصل العائلة مالبث ان سقط بما كتبه فيهِ المنتقدون وخصوصاً مورجن العالم الاميركاني صاحب كتاب نظام الاجتماع عند القدماء فقد برهن ان الزواج الداخلي لا ينافي الامومة . وكتب في الامومة ونظام العائلة غير واحد من علماء الاجتماع الالمان والفرنساويين والانكليز والروس وغيرهم مثل باجيهوت ودارغون واميرا وويلكن وستارك وبربد وجيرو وسميث ووسترمارك وغيرهم مما يطول بنا تعداده فنكتفي بآخر من خاض هذا العباب الاستاذ ويلكن المستشرق في كلية ليدن فانه وضع كتاباً في الامومة عند العرب على الخصوص كتبهُ بعد مطالعة كتاب الاستاذ روبرتسن سميث في طوتمية العرب فوافقه من وجوه وانتقده من وجوه ولكنه يرى رأيه في ان الامومة كانت سائدة عند العرب قبل الاسلام وان الانساب التي يتناقل العرب اخبارها موضوعة . واستشهد بقول نولدكي المستشرق الالماني الشهير في هذا الشأن وخلاصة قوله ان الانساب العربية وضعها ابن الكلبي وغيره بعد الاسلام لفقوها تلفيقاً [1] وهو قول قد بيَّنَّا بعده عن الامكان وستأتي تتمة الكلام

ولو اردنا الاتيان على اقوال الباحثين في هذا الموضوع لضاق بنا المقام فنتقدم الى النظر في ادلة سميث التي نحن في صددها ومن قال قولهُ :

ادلتهم على امومة العرب

ليس في ادلة سميث ولا غيره على الامومة عند العرب قول صريح او دليل ثابت وانما هي قرائن او اشارات لو ثبتت امومة العرب لكانت مؤيدة لها لا ان تكون هي وحدها دليلاً عليها . فانتساب بعض القبائل او البطون او العشائر الى امهاتهم وتأنيث اسماء القبائل واشتقاق لفظ الأمة من الأُم واطلاق لفظ الخال على اهل الام جميعاً وامتلاك بعض النساء عصمتهن بالطلاق وغير ذلك مما عوّل عليهِ صاحبنا في اثبات قوله على ما سنبينه — فهذه كلها اذا فرضنا ثبوتها لا يجوز اتخاذها دليلاً على ان العرب كانوا ينتسبون الى امهاتهم

(1) Zeitsch. der Deutch. Morg. Gesl. Bd. XVII. 707

او ان اساس العائلة عندهم المرأة · لان وجود هذه الاحوال في جاهلية العرب لا ينافي انتسابهم الى آبائهم بل هي تعدُّ من قبيل الشواذ او انها وقعت على سبيل الاتفاق · ولو جاز لنا ان نجعل الشواذ قواعد لفسدت احكامنا وضللنا في اقوالنا وعقائدنا · فالثابت منذ قرون عديدة ان العرب وغيرهم من الشعوب السامية كان نظام الاجتماع عندهم كما هو الآن اي ان الرجل رأس العائلة وهو سيدها و يؤيد ذلك لفظ «البعل» للزوج والسيد جميعاً · ناهيك بشهادة التوراة فانها مع قدم عهدها لم يرد في نص من نصوصها فقرة تشير الى الامومة او تدلُّ على وجودها او اثر شيوعها عند الساميين او غيرهم ولو على سبيل النقد او النهي او الاصلاح · ولا ورد شيء من ذلك في القرآن ولا شوهد منقوشاً على الآثار في مملكة من ممالك الشرق قديماً ولا حديثاً بل كل ما جاءنا من هذه السبيل يؤكد سيادة الابوَّة عند الساميين · ولو افترضنا وجودها لاقتضى ان يكون ذلك قبل اسفار موسى بمدة لا نعلم مقدارها لان هذه الاسفار لما كتبت لم يكن للامومة اثر على الاطلاق · بل ينبغي ان تكون قدامحت آثارها قبل موسى بعدة قرون لان شريعة حمورابي التي اكتشفوا نصها مؤخراً دونت نحو القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد [1] وكل ما جاء فيها عن الزواج والطلاق ونحوهما يدلُّ على ان نظام العائلة كان في عصر حمورابي نحو ماهو عليهِ الآن — الرجل رب العائلة · وليس في نص من نصوص شريعته اوموادها لفظ او عبارة او قرينة تدلُّ على وجود الامومة تصريحاً ولا تلميحاً · ولا اطلعنا على ذكر الامومة او الاشارة اليها في كتاب من الكتب القديمة المتصلة بالخرافات مع ما تتضمنه من اقاصيص الآلهة ونحوها · ولا اكتشف المكتشفون على نقش من نقوش الاطلال فيهِ اقل اشارة الى ذلك — فكيف يجوز القول بوجودها والاستناد في اثباتها الى بعض القرائن الضعيفة

قول استرابون

والظاهر ان القائلين بالامومة عند العرب نبههم اليها ما طالعوه في كتب السياح عن وجود زواج المشاركة عند بعض القبائل المتوحشة بين هنود اميركا واوستراليا وفي تيبت ونحوها وان العرب الجاهلية كان عندهم نوع من هذا الزواج فذهبوا الى شيوعها قبل الاسلام وخصوصاً بعد ان قرأوا ما قالهُ الرحالة استرابون عن الزواج عند العرب في عصره أي نحو القرن الاول قبل الميلاد · فقد جاء في الكتاب السادس عشر من رحلته ما ترجمتهُ : « والزواج عندهم مشترك بين الاخوة فللاخوة جميعاً امرأة واحدة والذي يدخل منهم اليها

(١) الهلال سنة ١٣

أولاً يترك عصاه بالباب واما الليل فهو خاص باكبرهم وقد يأتون امهاتهم والزناة يعاقبون بالقتل وهم الذين يتزوجون من غير قبيلتهم »[١] فقد يتبادر الى زهن المطالع لاول وهلة ان هذه الفقرة تؤيد الامومة وليس الامر كذلك لان هذه القصة انما تشير الى اشتراك الاخوة في الزواج بامرأة واحدة وليس اهل العشيرة جميعاً فهي تدلُّ على وجود العائلة واستقلالها مما يخالف شروط الامومة ٠ وتشير ايضاً الى تحريم الزواج الخارجي وهو من اسس الامومة عند اصحابنا ٠ و يقول استرابون ان العرب كانوا يعاقبون مرتكبهُ بالقتل

وهبْ ان نص هذه الحكاية لايخالف ما يريدونهُ بالامومة فتكون الامومة شائعة عند العرب حوالي تاريخ الميلاد ٠ وقد تقدم قول الاستاذ سميث ان العرب والعبران والاراميين كانوا في اقدم ازمانهم عائشين معاً في جزيرة العرب ثم خرج العبرانيون والاراميون وظل العرب مكانهم ٠ وبيّنا قبلاً ان العبرانيين لا ذكر لهذا الزواج عندهم على الاطلاق ولا سمعنا بمثله عند الاراميين واغفال حمورابي ذكره في نصوص شريعته يدلُّ على انهُ لم يكن معروفاً في عصره بين النهرين او ما يجاورها ٠ فكيف نصدق وجوده عند العرب نحو تاريخ الميلاد ٠ فالارجح عندنا ان يكون استرابون قدشاهدحادثة من هذا النوع عند بعض الناس فاطلقها على سائر العرب ٠ او سمعها من بعض الرواة فصدقها لغرابتها فاوردها على علاتها كما يفعل كثيرون من امثاله الذين يرحلون الى بلاد الشرق فيعولون في وصف اهلهِ وعاداتهم على ما يلقيه اليهم بعض التراجمة او عابري السبيل بما فيه من المبالغة او الاختلاق وهم ارغب في نشر الغريب استجلاباً لاعجاب قرائهم كما حدث في الاجيال الوسطى وما بعدها على اثر انتشار الاسلام

ومع اشتغال الافرنج بنقل العلم عن الكتب العربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد واختلاطهم بالمسلمين في قرطبة وطليطلة وغيرها فقد ظلوا يجهلون تهجئة اسم النبي فيكتبونهُ تارة مفمت Mophomet وآونة بفمت Bophomet وحيناً بافون Bafon وكانوا يظنون محمداً صنماً يعبده المسلمون حتى بولوجيوس احد كهنة قرطبة العلماء مع مخالطته المسلمين في تلك العاصمة فقد كتب عن الاسلام مفتريات لا اصل لها في كتبهم ولا في تعاليمهم ٠ كقوله مثلاً ان النبي اعلن اصحابه ان الملائكة ستحملهُ الى السماء بعد موته بثلاثة ايام — زعم انهُ نقل ذلك من مسودّات لاتينية عثر عليها في بمبلونة ٠ فقس عليهِ ما قد يختلقهُ غير العارفين كما حدث ويحدث كل يوم الى عهد غير بعيد ٠ حتى الذين يقيمون بين

(١) Strabon, Trad. A. Tardien, Livre XVI. 25

اظهرنا اعواماً فقد ينقلون عنّا الاكاذيب التي ما انزل الله بها من سلطان وربما رأوا حادثة غريبة ارتكبها بعض الناس عن جهل او اتفاق فيعدونها من القواعد المرعية عند سائر افراد الامة · وبين يدينا رحلات عديدة كتبت ونشرت في اثناء القرنين الماضيين عن سوريا ومصر وفيها من المفتريات ما لا اصل لهُ الاّ في ذهن الكاتب او ملقنه · ولولا انتشار الطباعة وخروج الناس الى نور العلم وتصحيح تلك المفتريات لرسخ في اذهان اهل الغرب ان الشرقي يكدن امرأته للحراثة وانهُ يزرع القوارما (اللحم المقلي) وهو يعتقد انه سيستغل خرفاناً ويزرع الفحم ليستغل عبيداً — فكيف في عصر استرابون منذ نيف وتسعة عشر قرناً وهو يكتب عن قوم لا يعرف لسانهم ولا اقام بينهم ؟ ويؤيد ذلك ان تتمة قولهِ في هذا الموضوع تدلُّ على انهُ اوردهُ على سبيل الحكاية ولم يغفل الاشارة الى ضعف اسنادهِ بقوله يزعمون (On dit) فلا عبرة في ما ذكره استرابون بالنظر الى الامومة وهو بظاهره اصرح ادلة صاحب طوتمية العرب · واما سائر ادلته فانما هي قرائن ضعيفة لا يصح الاعتماد عليها · وحتى لا يقال اننا لم ننصفه ناتي بتلك الادلة وننظر في كل منها على حدة وهي :

١ — الانتساب الى الامهات (صفحة ٢٧ و٣٠ من كتابه)

كقولهم بنو خندف و بنو ظاعنة وكلاهما اسم امراة نسبت القبيلة اليها — ولو نقبنا بين المئات من اسماء القبائل والبطون والافخاذ ماوجدنا بينها من ينسب الى امهم الاَّ بضعة قليلة · فاي غرابة في ذلك وبين العائلات اليوم نحو عشرة في المئة ينسبون الى الامهات كآل ظريفة وآل نقلا وآل نور وآل نائلة وآل ماربة وقس عليه اهل اللغات الاخرى · فهل يجوز الذهاب الى ان هذه الاسماء من آثار الامومة عند اسلافنا ؟ ام ناتي على تعليلها من الطريق الاقرب وهو ان بعض هذه العائلات نسبت الى امرأة هي جدتهم العليا لان جدَّهم مات وهي كفلتهم وربتهم فعرفوا باسمها · وقد يكون الاب مجهولاً لحصول الحمل من السفاح مما يحدث في الجاهلية وغيرها فيولد الولد لا يعرف ابوه فينسبونه الى امه كما وقع لزياد بن ابيه الصحابي الداهية فقد كان يعرف بامه سميَّة فيقال زياد بن سمية ولولا استلحاق معاوية اياه بنسبه لعرف اعقابهُ بآل سمية ولو تقادم عهد هذه العائلة وتنوسي خبر امها لاضافها صاحبنا الى اسماء امهات القبائل وعدّها من بقايا الامومة

ويكثر الانتساب الى الامهات على الخصوص في الامم التي يتزوج رجالها امراتين فاكثر فيولد للرجل ولدان من والدتين يسميهما باسم واحد فينسب كلٌّ منهما الى امه فضلاً عن انتسابه لابيه تمييزاً لهُ عن ابن الام الاخرى وقد يشتهر بنسبته الى امه دون ابيه وامثلة

ذلك كثيرة قبل الاسلام وبعده . فقد كان لعليّ بن ابي طالب غير امراة ولد له منهنّ عدة اولاد من جملتهم ثلاثة كل منهم اسمه محمد فنسب احدهم محمد الاكبر الى امه خولة بنت جعفر من بني حنيفة فسمّاه محمد ابن الحنفية فلوعاش هذا في الجاهلية لعرف اعقابه ببني الحنفية بطن من هاشم او من قريش كما عرف بنو العدوية نسبة الى امهم من قبيلة عدي

وقد يشتهر الرجل باسم امه وان لم يكن له سمي من اخوته وانما يقع ذلك لشهرة والدته . فمحمد الامين بن هرون الرشيد اشتهر بابن زبيدة لفضل امه على سائر امهات الخلفاء وشهرتها وقس عليه . فهل يجوز ان تؤخذ هذه الحوادث ادلة على الامومة ؟ وزد على ذلك ان القبائل العربية التي تنسب الى امرأة ترجع اخيرًا الى النسب الابوي وهو العام الشامل . فبنو ظاعنة مثلاً نسبوا الى امهم ظاعنة وهم ينتسبون ايضًا الى ابيهم فيقال لهم بنو ثعلبة بن مراد بن أُد . وبنو خندف هم ايضًا بنو الياس بن مضر وقد نسبوا الى امهم امرأة الياس واسمها خندف . وبنو طهية نسبوا الى امهم وهم بنو سود بن مالك وقس عليه (١)

٢ — تانيث اسماء القبائل (صفحة ٢٨)

اي ان العرب تقول جاءت مضر وسطت قيس الخ ولا يقولون جاء مضر وسطا قيس — فلا ندري العلاقة بين تأنيث الاسم والامومة والتأنيث والتذكير في العربية لا قياس لهما ولو صحت الامومة لما ضرَّها ان تكون اسماء القبائل مذكرة كما ان تأنيثها لا يثبت وجود الامومة . على ان لتأنيث القبائل سببًا مبنيًا على قاعدة من قواعد اللغة وهو تقدير لفظ « القبيلة » قبل كل اسم فقولنا « مضر » يراد به « قبيلة مضر » وقولنا « قيس » يراد به « قبيلة قيس » فالتأنيث للفظ القبيلة المحذوف . والحكمة في ذلك دفع الالتباس بين ان يكون المراد بالفاعل رجلاً اسمهُ قيس او مضر او القبيلة . فاذا كان الفعل مؤنثًا انصرف الذهن الى القبيلة . وعلى هذا المبدأ يؤنثون اسماء المدن وان لم يكن لفظها مؤنثًا فنقول فتحت بغداد وعمرت مصر او الشام بتقدير لفظ « مدينة » . ونحن نقول اليوم روت المقطم وذكرت المؤيد وقالت الهلال فنؤنث الفعل والفاعل مذكرٌ لفظًا ومعنى وانما نقدر قبلهُ كلمة الصحيفة او المجلة

٣ — التعبير عن القرابة بالبطن (صفحة ٢٨)

فيزعم ان تسمية القبيلة بالبطن يؤيد اعتماد العرب على قرابة الام والواقع ان البطن فرع من فروع القبيلة على سبيل التشعب كالشجرة وانما جعلوا اسماءها شبيهة باسماء اجزاء البدن بالنظر

---

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٥

الى علاقتها بعضها ببعض او تفرعها بعضها عن بعض. فالمجموع الاكبر عندهم «الحي» كناية عن الانسان كله ويراد به الجماعة المتنازلون بمربع. وهو ينقسم الى «الشعوب» اي الفروع والشعبان النصفان كانهم ارادوا انقسام الجسم الى شطرين متساويين ايمن وايسر. و بليها «القبائل» وهي قطع عظم الرأس المشعوب بعضها من بعض. ثم «العمارة» كناية عن الصدر ثم «البطن» وبعده «الفخذ» واخيراً «الفصائل». فترى استخدام البطن للقبيلة او بعض فروعها لا علاقة له بالامومة وانما هو فرع من فروع النسب لما يقابله من اعضاء الجسد. واذا عدلنا عن هذا التعليل واعتبرنا كل اسم مستقلاً وقبلنا التعليل الذي تبادر الى ذهن حضرته لاقتضى ان يدلّوا بالبطن على العائلة التي هي من بطن واحد ولكنهم يريدون به القبيل المؤلف من عائلات

٤ — اشتقاق لفظ الامة من الأم

وهو عنده دليل على ان الاصل في النسب الام وخصوصاً لان الام في العبرانية تدل على القبيلة او الجماعة (صفحة ٢٨) ولكن هذا التعبير انما هو من قبيل المجاز مما لا يخفى على العارف باساليب اللغة العربية كقولهم أم القرى وأم المدائن والامهات للعناصر وعندهم الام الاصل فامّ كل شيء اصله وعماده وكل شيء انضمت اليه اشياء فهو أمّ لها . والاصل في هذه المعاني اتباع الاطفال أمهم لانها هي المكلفة بتربيتهم في طفوليتهم فيتبعونها وينقادون لامرها لا لأنها اصل النسب . ولهذا السبب قالوا ام الكتاب اصله وام القرى مكة وأم الدنيا مصر لكثرة اهلها . واما اشتقاق الامّة من الام فيعلل بنفس هذه الكيفية لاستعارة الامومة للرئاسة او من التوليد لظهور ذلك في النساء دون الرجال لان المرأة تضع النسل وهي تتولى الحضانة والتربية . فاذا ذكرنا الولادة سبق الى اذهاننا الام ولذلك غلب التعبير عن القرابة بعضو التوليد بالنساء كالبطن او الرحم وليس لان الام اصل القرابة . ولو تتبعت معاني ما يقابل لفظ الامّة في سائر اللغات لرايت لها نفس هذا المعنى فلفظ Nation في اللغات الافرنجية معناه الامة وهو مشتق من فعل في اللاتينية بمعنى «ولَدَ» والانكليز يقولون Motherland ويريدون بها وطن الابوين مع ان اللفظ يقتضي ان تكون وطن الام فقط . فعلى تعليل صاحبنا تكون هذه اللفظة دليلاً على شيوع الامومة عند الانكليز الآن !

٥ — الخال والعم والكنة

وذلك ان لفظ «الخال» بالعربية لا يراد به اخو الام على الخصوص ولكنه يطلق

على كل رجل من اهلها . وكذلك لفظ « العم » وان هذه اللفظة أصل معناها « الشعب » وذلك هو مؤداها في العبرانية الى الآن . وعليه فلا تكون عند العرب عائلة خصوصية (صفحة ٢٥٨) وانما الولد يكون ابن الجماعة او القبيلة على ما تقتضيه الامومة او الطوتمية — وهو قول غريب اذا صح الاعتماد عليه تشوَّشت احكامنا في انساب الانكليز والفرنساويين وغيرهم لانك ترى عندهم نفس هذا الاطلاق او الاشتراك فلفظ Cousin في السنتهم يدلُّ على كل قرابة عصبية ابعد من الاخوَّة فهو ابن العم وابنة العم وابن العمَّة وابنة العمة وابن الخال وابنة الخال وابن الخالة وابنة الخالة وابن ابن العم وابن ابن الخال الخ ... مما لا مثيل له في العربية . والاصل فيه ابن الخالة لانه منحوت من Consobrinus في اللاتينية اي ابن اخت الام — فهل يفيدنا اطلاقه على كل الاقرباء ان الاصل في القرابة الام ؟ وقس على ذلك لفظ Uncle في الانكليزية وما يقابلها في اللغات الافرنجية الاخرى فانها تدل على العم او الخال واصلها Avunculus في اللاتينية ومعناها الخال ثم اطلقت على العم . والحقيقة ان لا عبرة في هذا الاختلاف بالنظر الى الامومة فان اللغات تختلف في طرق الدلالة بما لا قياس له وخصوصاً من حيث درجات القرابة . ففي بعض اللغات لفظٌ يدلُّ على قرابة لا يعبر عنها في لغة اخرى الا بعدة الفاظ : فالصهر في العربية لا يمكن التعبير عنه في اللغة الانكليزية الاَّ بثلاثة الفاظ Brother-in-law وكذلك الحمو فهو عندهم Father-in-law والجدُّ يعبر عنه في اللغة الانكليزية بلفظين Grand father وكذلك حفيد Grand son وبعكس ذلك لفظ Nephew في الانكليزية فلا يمكن التعبير عنهُ في العربية الا بلفظين ابن الاخ أو ابن الاخت ومثلها Niece بنت الاخ او بنت الاخت — فدلالة كل من هذين اللفظين على اولاد الاخ والاخت معاً قد يتخذها اصحاب راي الامومة من جملة الادلة عليها !

ولفظ « الكنة » في العربية يراد به في اللغات السامية الكنة والزوجة على السواء فاستدل صاحبنا بذلك على ان الرجل كان يتزوج كنته (اي امراة ابنه او امراة اخيه) فلا رابط للزواج بين الرجل وامراته (صفحة ١٣٦) والجواب على ذلك يدخل في ما تقدم بيانه من اختلاف معاني الالفاظ توسعاً ومجازاً . ومثلها لفظ « صهر » يراد بها زوج بنت الرجل وزوج اخته ويراد بالصهر ايضاً القرابة على العموم والاصهار اهل بيت المراة . ومنهم من يجعل الصهر من الاحماء والاختان جميعاً فهل يصح الاعتماد على مثل هذا التوسع في اثبات مبداء او رأي ؟

٦ — زواج المتعة

وهو الزواج الوقتي اي ان يعقد الرجل على امراة عقد زواج الى اجل مسمى فمتى انقضى الاجل بطل الزواج • فيرى صاحبنا ان هذا الزواج كان شائعاً عند ظهور الاسلام وهو يحسبه يؤيد رايهُ في الامومة وهي تقتضي اباحة نساء القبيلة لاهل القبيلة بلا عقد ولا شرط والمتعة لا تكون بدون عقد فهي تناقض ما اراد اثباته • فالمتعة ضرب من ضروب الزواج التي كانت شائعة في الجاهلية وكلها تنفي الامومة لان الرجل فيها صاحب السيادة وصاحب العصمة

٧ — الوأد

يرى صاحب طوتمية العرب ان شيوع الواد في الجاهلية قلل البنات فاضطروا الى الاشتراك في النساء فكان يشترك عدة رجال في امراة واحدة يستولدونها ويكون الانتساب اليها (صفحة ٣٠) — وقد بالغ بعض الباحثين في مسألة الوأد وتوهموها عادة شائعة في بلاد العرب كلها والناقد يرى انها كانت منحصرة في مكان معين وزمان معين تحت احوال مخصوصة والاَّ فلا يعقل ان يعمد الناس الى دفن بناتهم ثم يضطرون الى المشاركة في الازواج وفي طاقتهم ان يتخلصوا من ذلك الضيق — وقد ذهب بعضهم ان العرب كانوا يئدون بناتهم خوف الفقر وهم في حلٍ من هذا الفقر لو استبقوهن على قلة البنات لما يجدون من اقبال الازواج عليهن بالمهر والهدايا — وقال آخرون انهم كانوا يئدونهن خوف العار واذا صحت الامومة لم يكن ثمت عار يخافه الآباء • وخوفهم العار على بناتهم دلالة على الغيرة وهي لا تكون في زواج المشاركة وفي الحالين فان دليله في الواد ساقط

٨ — العصمة في يد المرأة

وقد اتخذ امتلاك بعض نساء الجاهلية عصمتهن في الزواج والطلاق دليلاً على سيادة الامومة وان المرأة هي رئيسة العائلة — فما اغرب هذا الاستنتاج وما انقص هـذا الاستقراء — ان المرأة في الجاهلية لم تكن عصمتها في يدها الاَّ في احوال مخصوصة وحوادث نادرة فهل نجعل الشاذ قاعدة نبني عليهِ والنادر قياساً نقيس بهِ • واما القاعدة في زواجهم فهي ان تكون العصمة في يد الرجل • وهب انها في يد المرأة فلا تكون الاَّ بعقد مقيد بشروط وقوانين وليس على سبيل الاباحة والاشتراك كما يريدون بالامومة • وقس على ذلك سائر أدلتهِ لاثبات الامومة فان مرجعها الى تأويل الالفاظ او الاعتماد على الاستقراء

الناقص كقوله (صفحة ١١٨) ان الأب معناه المربي وكاستخراجه الحي من حواء (صفحة ١٧٧) وذكره القرابة بالرضاعة او المؤاكلة (صفحة ١٤٨) وتأويل لفظ آحاب الى اخ اب ونحو ذلك مما يقاس في رده بما قدمناه

الخلاصة

فالقول بشيوع الامومة في العرب الجاهلية لا يستطاع اثباته بالقرائن الضعيفة لان اليقين لا يزال بالشك — الاَّ اذا جاز الاعتماد على الشاذ النادر واغفال القواعد العامة . فقد رأيت في شروط الامومة ان يكون الزواج من الخارج بالغزو او السبي لان بنات القبيلة في زعمهم تقلّ بالوأد او بغيره وان تكون المرأة زوجاً لعدة رجال معاً واولادها ينسبون اليها — فلم نفهم كيف يكون الزواج بالغزو و كيف يمكن الرجوع بالانساب في القبيلة الواحدة الى الام ولماذا تقلّ البنات حتى تضطر القبيلة ان تغزو غيرها للحصول على النساء والقاعدة الطبيعية في تاريخ الانسان بادواره الاولى ان يكون النساء اكثر من الرجال لتعرض هؤلاء للقتل ونحوه بالغزو والسطو والاولى ان يكثر النساء حتى يتزوَّج الرجل عدة منهنَّ . على ان الحصول على النساء بالغزو يبعث على الرجوع الى النسب الابوي لان الآباء يبقون في القبيلة و يشبه ذلك ما كان من كثرة السبايا والجواري في صدر الاسلام فانهن تكاثرن حتى اختص الرجل بعشرة اوعشرات منهن وظلَّ النسب في الرجال — ولا يمكن غير ذلك كما يظهر للمتأمل . ولو فرض ان النساء يحاربن القبائل للحصول على الازواج بالسبي لكان ذلك اقرب الى حفظ النسب فيهن اي الانتساب اليهن او الى قبيلتهن

فالقول بتسلط الامومة على الاجمال يفتقر الى اثبات او تعديل لان وجودها على هذه الكيفية غير معقول ولا يوافق قواعد العمران او هو لا يوافقها على الاقل عند العرب لان القاعدة في الزواج عندهم وعند سائر الساميين ان تكون داخل القبيلة واذا جنح احدهم الى الخارج فلسببٍ طاريء — هذا هو حالهم في اقدم ما نعلمه من اخبارهم في التوراة وغيرها والعربي يسمي امرأته ابنة عمه وان لم تكن كذلك لان الغالب في الزواج عندهم ان يكون بين ابناء العم على تفاوت درجات العمومة . واليهود اكثر الامم محافظة على انسابهم ويمنعون الزواج من غير قبائلهم و يعاقبون من يخرج عن ذلك عقاباً صارماً واذا تزوَّج اسرائيلي بغير اسرائيلية فزواجه سفاح و يسمون المولود من ذلك الزواج « نغلاً » كما يسميه العرب « هجيناً » اي لئيماً فكيف نزعم مع ذلك ان العرب القدماء كانوا يتزوَّجون من الخارج بالغزو واذا فرضنا انهم كانوا كذلك فمتى انتقل الزواج الى الداخل و كيف انتقلت الامومة الى الابوة او البعولة

ومتى ؟ كلها مسائل مهمة لا يمكن الجواب عليها واصحاب مذهب الامومة انفسهم يعترفون بعجزهم عن ذلك فما اغنانا عن الذهاب اليه · ومن يطالع تاريخ الزواج من اول احوال العمران الى الآن لا يرى فيهِ الاَّ ما ينقض الامومة

٤ — الطوتمية عند العرب

واذا نقض القول بالامومة عند العرب نقض معه القول بالطوتمية عندهم لانها اساسها واول شروطها ومع ذلك فاننا ننظر في ادلة صاحبنا من حيث الطوتمية على حدة فنذكر شروط الطوتم كما فسَّرهُ هو ثم ننظر في تطبيقها على احوال العرب

فالطوتمية يشترط فيها « ان يتفق اهل القبيلة الواحدة على حيوانٍ او نباتٍ او كائنٍ آخر يعتقدون انه جدُّهم الأعلى يتسمون باسمهِ ويعبدونهُ أو يقدسونهُ » فهل ينطبق ذلك على أحوال العرب الجاهلية انطباقاً كلياً او جزئياً ؟ ولكي ينجلي الموضوع ويتضح البرهان نحلُّ القضية الى اجزائها الاصلية — وعليهِ فالطوتمية تقتضي : —

اولاً أن يتفق اهل القبيلة على حيوان او نبات يعتقدون انهُ جدهم الأعلى

ثانياً ان يتسمَّوا باسمهِ او ينتسبوا اليهِ

ثالثاً ان يعبدوه أو يقدسوه

ولا تثبت الطوتمية مالم تجتمع هذهِ المقدمات الثلاث عند العرب · ولكنك اذا بحثت في اخبارهم قديمها وحديثها من الخرافات والحقائق الثابت منها وغير الثابت وفي مارواه غير العرب عن احوالهم القديمة في كتب اليونان والرومان فضلاً عن التوراة · وما قرئ من اخبارهم على آثار اشور وآثار ثمود وآثار اليمن وحضرموت ما توفقت الى العثور على ما يشير الى وجودها · واذا درست احوال العرب الآن في الصحاري والمدن والاودية والجبال لا تجد بينهم قبيلة ولا بطناً ولا رجلاً يعتقد انهُ متسلسل من اسد او ثور او ثعلب او جميزة او وردة · ومهما اجهدت نفسك في التنقيب والمراجعة والتأويل فانك لا تجد اثراً لهذا الاعتقاد على الاطلاق ولو على سبيل الخرافة او في معرض التكذيب او الطعن — فالمقدمة الاولى سقطت

اما الثانية فبعضها صحيح اي ان بعض القبائل تسمَّى باسماء الحيوانات كبني أسد وبني النمر وبني كلب ونحوها ولكنها لا تعتقد ان اولئك الاجداد حيوانات بل هي تعدُّهم اناساً لهم انساب متصلة بالآباء الاولين

والمقدمة الثالثة ظاهرها صحيح و باطنها فاسد لان بعض قبائل العرب كانت تعبد آلهة على شكل الحيوانات مثل عبادة سائر الامم الوثنية القديمة في مصر واشور وفينيقية ممن كانوا يعبدون اصناماً يمثلون بها القوى العلوية — لا أنها تعبد حيواناً خاصاً تقدسهُ وتجتنب أذيته وتعتقد انهُ جدها كما يفعل اصحاب الطوتم · فبنو أسد مثلاً يتسمون باسم الاسد ولكنهم لا يعتقدون انهُ جدهم ولا يقدسون الاسد أو يعبدونهُ واذا عرض لهم الاسد قتلوه · وقد يكون معبودهم من الحيوانات بشكل نسر أو فرس او غيرها من الاصنام الحيوانية · وشرط الطوتمية انما هو ان يعتقد بنو اسد ان الاسد جدّهم وان يقدسوا كل اسد او يعبدوه اي لا يؤذوه · و بنو ثور يجب ان يعتقدوا ان الثور جدهم وان يعبدوا الثيران او يقدسوها ولا يذبحوها او يؤذوها · وبنو جراد حقهم ان يعتقدوا تسلسلهم من الجراد و يقدسوه ولا يأكلوه كما رأيت في ما تقدم من شروط الطوتمية عند الامم المتوحشة اليوم· ولا يكفي ان تسمَّى القبيلة باسم الثور مثلاً وتقدس الجراد او تتسمَّى باسم الاسد وتقدس الفرس · ولو فرض واتفق لقبيلة ان تسمى بحيوانٍ وتقدسهُ او تعبده فليست من الطوتمية في شيء لان الشرط الاول ان تعتقد تسلسلها عنهُ · وهذه الشروط الثلاثة لم يتفق وجودها في قبيلة من قبائل العرب ولا في بطن من بطونها ولا في فصيلة ولا فرد من افرادها ولو على سبيل الخرافة او الاكذوبة · حتى اجتماع الشرطين الاخيرين فانهُ متعذر اذ ليس بين قبائل العرب قبيلة تسمي باسم حيوان وتعبدهُ ولا يكفي ان تعبد صنماً بشكل ذلك الحيوان بل الشرط ان تقدس جنس هذا الحيوان وتجتنب اذيتهُ كما كان المصريون يقدسون الهر او الجعلان · والعرب لا يقدسون حيواناً الاَّ نادرًا وفي احوال مخصوصة · على ان صاحبنا لم يتفق لهُ مع ما اجهد نفسه وتوسع في برهانه من التأويل والتفسير ان يأتي بدليل على ان قبيلة من القبائل المسماة باسماء حيوانية كانت تعبد صنماً بشكل الحيوان الذي تتسمى بهِ وان كان توفقه الى ذلك لا ينفعهُ شيئًا لان المطلوب ان القبيلة التي تتسمى باسم حيوان يجب ان تقدس جنس ذلك الحيوان لا صنماً بشكلهِ

فمذهب الطوتمية عند العرب ساقط بسقوط الامومة ثم هو ساقط ايضًا لبعد احوال العرب عن شروط الطوتمية كما رأيت — ومع ذلك فلا ينبغي لنا الاغضاء عن الادلة التي اعتمد عليها صاحب طوتمية العرب في اثبات هذا الرأي وسبب ذهابه اليهِ مع غرابته فنقول

٥ — ادلته على طوتمية العرب

ان من يطالع تلك الادلة في كتابه يتضح لهُ من مجملها انهُ لما اطلع على احوال الطوتمية عند القبائل المتوحشة كما ذكرها مكلينان وغيره — وهو مستشرق يعرف احوال العرب الجاهلية وقبائلها وانسابها ومعبوداتها ورأى بعض القبائل أو البطون تسمى باسماء حيوانية . وكان العلماء يومئذ مولعين بالحقائق الطبيعية على مذهب الارتقاء يشتغلون بردّ كل الحوادث اليهِ كما قدمنا . ورأى النسابين العرب مختلفين في تحقيق انساب بعض القبائل فتبادر الى ذهنه ان اسماء هذه القبائل من بقايا الطوتمية عند العرب . فأخذ يفتش عن شروطها الاخرى فرأى بعض القبائل تعبد اصناماً بشكل بعض الحيوانات فتمكن ذلك الرأي من ذهنه ونسي ان الشرط ليس عبادة صنم حيواني الشكل وانما المراد تقديس صنف من الحيوانات اسمه كاسم القبيلة . اولعله انتبه لذلك وظن نفسه قادراً على الاتيان بحادثة يمكن تأويلها او قرينة يستدلُّ بها على شيء واخبار العرب كثيرة وفيها الغث والسمين والناقض والمنقوض وهو قويُّ الحجة لطيف الاسلوب فتوفق الى ادلة توهم غير المتأمل انهُ اصاب بها المرمي وهو بعيد عنهُ كما سترى . واليك ادلته و بيان فسادها :

تسمية القبائل باسماء حيوانية (صفحة ١٨٨)

ليس بين ادلته على الطوتمية ما يصح اعتباره من قبيل القول الصريح الاَّ اسماء القبائل وان كانت هذه الاسماء لا تكفي وحدها لاثبات رأيه لاسباب تقدم بيانها . ولكنهُ يحتج بان تسميتها باسماء حيوانات ليست من قبيل العبث ولابدَّ لذلك من سبب . فعلينا ان ندفع حجته بان هذه التسميات طبيعية لا غرابة فيها

ان صاحبنا الاستاذ اورد من اسماء القبائل كل ما يشتم منه رائحة الحيوانية ولم يزد عدد ما اورده منها على ثلاثين اسماً بعضها قبائل وبعضها عمائر وبعضها بطون أوفصائل وهي :

بنو اسد	بنو جعدة	بنو ضب	بنو فهد
« بدن	« جعل	« ضبيعة	« كلب
« بكر	« حداء	« عضل	« نعامة
« بهثة	« حمامة	« عنز	« نمر
« ثعلب	« حنش	« غراب	« وبر
« ثور	« دؤيل	« فهد	« هوزن

بنو جحش	بنو دب	بنو قرد	بنو يربوع
« جراد	« ذئب	« قنفذ	

ولو عددنا اسماء القبائل العربية وفروعها من العمائر والبطون والافخاذ والفصائل لزادت على بضع مئات وربما ناهزت الالف فلو كانت التسمية طوتمية لوجب ان يزيد عدد القبائل الطوتمية على سائرها ثم ان بعض ما اورده من الاسماء له غير معنى الحيوانية ولكنه اختار الحيوانية ليزيد اسباب رهانه . فبكر مثلاً تفسر بولد الناقة ولكن لها معنى « العذراء » و « اول كل شيء » والسحابة والكرم اول حمله وغير ذلك . على اننا لو رجحنا معناها الاول اي ولد الناقة لما كان في التسمية شيء من الطوتمية لان العرب لو جاز ان يتسموا بحيوان ويعبدوه لكان « الجمل » او « البعير » اولى من سواه نظراً لاضطرارهم اليه وقدم عهده عندهم وليس من القبائل ما يسمى به الا بكر هذا وهو اقرب ان يكون لقباً لقب به رجل فتى نشيط كأنه ولد الناقة . و « البهثة » البقرة الوحشية وابن الزناء . و « الجعدة » الانثى من اولاد الضان والمرأة التي في شعرها جعودة فلماذا لا يكون المراد بها المعنى الثاني لولم يسبق الى ذهنه الطوتمية . و « العضل » الجرذ ولكنه ايضاً يدل بكسر العين على الداهية من الرجال او القبيح منهم فلماذا لا يكون المراد احد هذين المعنيين . و « القهد » نوع من ضان الحجاز ولكنه يدل ايضاً على الرجل الابيض اللون نقيه . وقس على ذلك — فالقبائل التي تثبت تسميتها باسماء الحيوانات لا تزيد على بضعة وعشرين قبيلة او فرع قبيلة

فاتفاق هذا العدد القليل بين مئات من الاسماء لايصح عزوه الى الطوتمية فان الناس ما برحوا منذ القدم يتسمون باسماء الحيوانات او يتلقبون بها ثم يذهب الاسم ويبقى اللقب كما سنبينه

التسمية

ان لاسماء الاعلام تاريخاً طويلاً في علم العمران وهي تختلف صورة ومعنى باختلاف الاعصر وباختلاف الامم . فكل امة تختلف التسمية فيها عما في سواها وتختلف في الامة الواحدة باختلاف ادوار تمدنها . على انها في كل حال تقتبس مما يقع في النفس موقع الاعتبار من الكائنات على اختلاف طبقاتها فتختار من اسمائها ما يلائم عاداتها ومعتقداتها . فاذا تدينت انتسبت الى الاله او الآلهة سواء كانت تلك الآلهة اجراماً سماوية او حيوانات او اصناماً او غير ذلك . اما قبل التدين او في حال البداوة الخشنة فالغالب ان يختار الناس لابنائهم اسماء ما يعجبون به او يخافونه من الاجسام الطبيعية ولا سيما الحيوانات على ما يتوسمونه

في المولود من القوة او الشجاعة او الدهاء او الدعة او الخوف · فيختارون لهُ اسم حيوان فيه مثل هذه الطباع فيسمون الرجل الشجاع بالاسد والسريع الوثوب بالنمر ويسمون الفتاة اللطيفة بالغزال او الحمامة · وقد جرى على ذلك معظم الامم القديمة في كل انحاء العالم ولا سيما الامم الحربية او اهل البداوة والغزو الذين يعيشون في البراري يرحلون من نجع الى آخر والحيوانات عشراؤهم كما كان شأن العرب في ايام جاهليتهم · فقد كانوا يعيشون بين الحيوانات حتى درسوا طبائعها ووصفوا كلاً منها بوصف خاص فاذا ولد لهم ولدٌ هان عليهم تشبيهه بواحد منها بشكله او طباعه ويسمونهُ بهِ

وليس هذا خاصاً بالعرب بل هو يتناول سائر اهل البادية او من جرى مجراهم قبل تعلقهم بالدين · فاليهود كانوا في اوائل ادوارهم يجرون في التسمية على هذا النمط ولذلك رأيت بين اسمائهم القديمة كثيرًا من اسماء الحيوانات كقولهم دبورا (نحلة) وأربه (اسد) و يونا (حمامة) وراحيل (نعجة) وشوال (ثعلب) وكالب (كلب) وديسان (غزال) او اسماء الاجرم السماوية مثل حودش (الهلال) · ومن الاوصاف الطبيعية اشور (اسود) وايدوم (احمر) وعيسو (كثير الشعر) وكوره (شجاع) · وقس على ذلك سائر الامم القديمة ولاسيما قبل تدينها · فقدماء الانكليز كانوا يتسمون بأسماء الحيوانات ايضاً ومن اسمائهم القديمة Ethelwolf (الذئب الشريف او ذئب الحرث) وقد تسموا بالاوصاف الطبيعية كالابيض والاسمر والطويل والقصير · ثم تدرجوا الى الصنائع كالحداد والنجار والنقاش والسروجي · وانما يهمنّا في هذا المقام الاسماء الحيوانية وهذه لم تخلُ امة من التسمية بها على تفاوت في ذلك بتفاوت احوالهم من البداوة والحضارة ولا يزال عند الامم المتمدنة حتى الآن عدد كبير منها او ما يقابلها من اسماء الكائنات الطبيعية كالحجارة والاشجار واليك امثلة من ذلك :

فمن الاسماء اليونانية والرومانية :

كالاسد او الاسد	Leonidas
اسد الغاب	Napoleon
صخر	Peter
محب الخيل	Philip
غزال	Darcas
اسد	Leo

ومن الاسماء الجرمانية والسكسونية والتيوتونية :

النسر او قوي كالنسر	Arnold
الحجر الشريف	Athelston
الذئب او قوي كالذئب	Bernard
العقاب او قوي كالعقاب	Bertram
الخنزير البري	Everard
نعجة	Giles
عقاب	Ingram
اسد	Leonder
كالاسد او كالعقاب	Leonard
خروف	Oven
ذئب المنازل	Randal
الذئب المشهور	Rodolph
الحية الشريفة	Ethelnid

ومن الاسماء الفارسية القديمة :

شيركوه	اسد الجبل
ببر او بابر	الاسد
جمشيد	وجه الشمس
اردشير	الاسد الغضوب
بلاش	نوع من النمر
سيمورغ	السمك الفضي
زرسب	الجواد المذهب
بهرام	المريخ
الضحاك	الثعبان

فترى مما تقدم ان التسمية بالاسماء الحيوانيـة من القواعد الطبيعية المرعية عند سائر الامم وربما كان العرب اكثر تمسكاً بها لما تقتضيه بداوتهم وخشونتهم ولذلك كثرت عندهم

الاسماء المتعلقة بالحروب ايضاً كحرب ونصر وسعد وعدوان وعبس واشجع وسهم وصخر ونحوها — قيل لابي الدقيش الاعرابي « لم تسمون ابناءكم بشرّ الاسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم باحسنها نحو مرزوق ورباح » فقال « انما نسمي ابناءنا لاعدائنا وعبيدنا لانفسنا » (١)

على ان المتعبدين من العرب الاصنام كانوا يتسمون عبيداً لها كعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس وعبد سعد وعبد تيم وغيرها . ولما اسلموا كثرت اسماؤهم المنسوبة لله او بعض صفاته كعبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم وعبد الاحد وعبد الصمد . وذلك شأن الامم المتدينة في كل مكان وزمان فالاشوريون كانوا يتسمون بالنسبة الى آلهتهم مثل « تغلاتنين » عبد الاله تنين و « متاغل نبو » عابد نبو وكذلك البابليون فانهم يضيفون اسماءهم الى الههم « بل » او « نبو » فيقولون « بل ابني » بل صنعني و « نبو نصر » اي نبو ينصر و « عبد نبو » اي عبد الاله نبو و « نبو بالوزور » نبو يحمي ابني (٢) وكذلك اليونان بعد تنصرهم ومن اسمائهم « ثيودسيوس » عطية الله و « ثيودورس » عبد الله وغيرهما

فتسمية العرب الجاهلية رجالهم باسماء الحيوانات امرٌ طبيعي يؤيده تصغير تلك الاسماء للتحبب كقولهم ذؤيب واسيد وكليب ونحو ذلك مما لا يفسَّر الاَّ اذا كانت تلك الاسماء القاباً للناس . وظل العرب على ذلك في بداوتهم حتى تدينوا وتسموا بالاسماء الدينية كما تقدم . ولما تمدنوا تسمّوا باسماء الصنائع كالنحاس والصيدلاني والكحال والنجار والاسطرلابي ولما ضعفت عصبية النسب عندهم تسموا بالنسبة الى البلاد كالدمشقي والبغدادي والبصري والبخاري والنيسابوري وغيرها — فبقاء بضعة وعشرين من القبائل القديمة على اسماء الحيوانات ليس امراً غريباً

قال الجاحظ في كتاب الحيوان « والعرب انما كانت تسمي بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل اذا ولد لهُ ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل فان سمع انساناً يقول حجراً او رأى حجراً سمى ابنه بهِ وتفاءل فيهِ الشدة والصلابة والبقاء والصبر وانهُ يحطم ما لقي وكذلك اذا سمع انساناً يقول ذئب او رأى ذئباً تاول فيه الفطنة والمكر والكسب وان كان حماراً تاول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد وان كان كلباً تاول فيهِ الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب . ولذلك صور عبيد الله بن زياد في دهليزه كلباً وكبشاً واسداً وقال كلب نابح وكبش ناطح واسد كالح فتطير على

(١) الدميري ٢٤٢ ج ٢

(٢) Rowlinson's Ancient Monarchies II. 539 & III. 527

ذلك فطارت عليهِ »

التلقيب

هذا على فرض انها اسماء سمي بها آباء تلك القبائل ولكن كثيراً منها كان في الاصل لقباً أُلحق بالاسم الأَصلي ثم ذهب الاسم وبقي اللقب مما يقع دائماً وخصوصاً عند العرب لانهم مفطورون على التلقيب والتكنية ويتضح لك ذلك من مراجعة معجماتهم فانك ترى للاسد مئات من الاسماء اكثرها القاب لقبوه بها ثم صارت اسماء وكذلك الديك والغراب والفرس والبعير والذئب والحية والجراد وغيرها من حيواناتهم غير اسماء الاسلحة ناهيك بالمترادفات من اسماء الشمس والمطر والبحر والبئر واللبن والعسل والخمر والنار . ومن الالقاب كالطول والقصر والشجاعة والجبن والكرم والبخل والحمق ونحوها[1] ولكل منها مئة او مئات من المترادفات واكثرها القاب او كنايات تدل على ميل العرب الى التلقيب والتكنية من فطرتهم

وكانوا يضربون الامثال غالباً بالبهائم فلا يكادون يذمون او يمدحون الاَّ بذلك لانهم جعلوا مساكنهم بين السباع والاحناش والحشرات واستعملوا التمثيل بها لما ألفوه من طبائعها وخصوصاً القبائل العدنانية لسكناهم في صحاري نجد والحجاز وبلادهم اكثر وعورة وخشونة من القحطانية ولذلك كانت اسماء الحيوانات اكثر في قبائلهم مما في القبائل القحطانية . وقد درسوا تلك الطبائع بالمزاولة واختصوا كل حيوان بطبيعة نسبوها اليهِ كالروغان للثعلب والشجاعة للاسد والصبر للحمار والامانة للكلب والغضب للنمر والثقل مع الخساسة للفيل ونحو ذلك وصاروا يعوضون عن الالقاب باسماء تلك الحيوانات فبدلاً من قولهم « شجاع » يقولون « اسد » وبدلاً من صبور يقولون « حمار » ويكنون عن المراوغ بالثعلب واذا ارادوا ان يقولوا غضب فلان قالوا « تنمَّر »

وكانوا من الجهة الاخرى يلقبون الحيوانات باسماء الناس او كناهم فالفيل كنيته ابو حجاج والاسد ابو الحارث والذئب ابو جعدة والدب ابو رباح والخنزير ابو قادم ويقال ابو عقبة والثعلب ابو الحصين والكلب ابو خالد وابو ناصح عند بعضهم . والسنور ابو خراش ويقال ابو غزوان والغزال ابو الحسين والجمل ابو صفوان ويقال ابو ايوب وابو مزاحم والثور ابو حاتم والكبش ابو المطرف والنمر ابو وثاب والفهد ابو قرة والفرس ابو طالب والبرذون ابو مضاء والبغل ابو المختار والحمار ابو زياد وعندهم ام حبين الجرادة وام عوف الحمامة

(١) لطائف اللغة العربية

وام مهدي الدجاجة وام حفص الهدهد وابو الميت الجعالة وابو الصراة القملة وام عقبة الحية وام يقظان العقرب وقس عليه

وكان التلقيب عاماً في الشعوب السامية اعتبر ذلك بما جاء في التوراة عن تلقيب يعقوب لأولاده لما جمعهم في آخر ايامه فعبر عن اوصاف بعضهم باسماء الحيوانات فسمى يهوذا شبل اسد ويساكر حماراً ودان ثعباناً ونفتالي ايلة وبنيامين ذئباً . وترى امثال هذا التلقيب في اماكن كثيرة من التوراة . ويدلُّ ذلك على شيوع التلقب عند الساميين قديماً ثم قلَّ عند العبران والسريان لما سكنوا المدن واخلدوا الى السكون وظلَّ عند العرب لبقائهم على البداوة . وما زال ذلك شأنهم الى صدر الاسلام وما بعده ولا تزال بعض اسماء الحيوانات تستخدم للتكنية الى اليوم وقد تنوسي معناها الاصلي كالقرم للسيد العظيم ومعناه في الاصل « الفحل » وكذلك « الرتُّ » للباسل وهي اسم للخنزير و « الاصيد » للملك وهو البعير . على انهم كثيراً ما كانوا يلقبون باعضاء الحيوانات المفترسة كالناب والانف والقرن فانها من القاب الشجاعة والقوة عندهم[1] ومن عادات العرب اذا مات لاحدهم اولاد وخاف انقطاع ذريته ان يسمي اولاده باسماء الحيوانات المفترسة كالذئب والنمر وغيرهما ولا تزال هذه العادة جارية في سوريا الى اليوم

فترى ان التلقيب بالحيوانات كان شائعاً عند العرب قبل الاسلام على انهم ساروا عليه بعد الاسلام فسموا حمزة عم النبي « اسد الله » او « اسد رسول الله » وكذلك علي ابن ابي طالب لشجاعتهما[2] وقد سموا مروان بن محمد بالحمار لصبره . ويكون التلقيب للمدح كما رأيت او للذم كتسميتهم عثمان بن عفان « نعثل » وهو ذكر الضباع وتسمية عبدالملك ابن مروان « ابا ذبان » لبخره و « رشح الحجر » لبخله[3] وتلقيب بني عمرو بن عمر افواه الكلاب لبخر افواههم

ومن ادلة رغبتهم في التلقيب انهم يلقبون الرجل ببيت شعر نظمهُ او لفظ قاله او حادثة جرت معهُ مما لا ضابط لهُ فالمرقش الشاعر اصل اسمه عوف بن سعد فنسي الاسم وبقي اللقب والمتلمس اسمه جرير بن عبد المسيح والنابغة اسمه زياد بن معاوية وكذلك المخرق وتابط شراً واعصر والمستوعر وغيرهم ممن ذهبت اسماؤهم وبقيت القابهم — فماذا يمنع حدوث ذلك قبل التاريخ فيلقب أبو القبيلة بما يناسب خلة من خلاله مدحاً او ذماً ثم يتناسى الاسم

(١) الالياذة العربية (المقدمة) (٢) والافرنج يلقبون غوستافوس ادلفوس ملك اسوج بأسد الشمال (٣) المعارف ١٣١

ويبقى اللقب . وفي اخبار العرب امثلة كثيرة من هذا النوع فقيس عيلان اصل اسمه قمقة ولكنهُ اشتهر بلقبه وكذلك قريش وغيره . وقد يكون للتلقيب سبب متصل بحادثة فعنزة أبو القبيلة المعروفة سمي بذلك لانه قتل رجلاً بعنزة واصل اسمه عامر . والحظائر سمي بذلك لان المنذر بن امرىء القيس كان جمع اسارى بكر في الحظائر ليحرقهم فكلمهُ فيهم فشفعهُ واصل اسمه كعب والزبرقان سمي بهذا الاسم لجماله وسمي القمر ايضاً وكلاهما غير اسمه ولا يعرف الاَّ بهما . وقصي اصل اسمه زيد وعبد المطلب اسمه عامر وكلاهما يعرف باللقب فقط . وقد يكون اللقب اسم حيوان او لقباً من القابه مثل جساس اسم الرجل المشهور فمعناه في اللغة الاسد المؤثر في الفريسة ببراثنهِ واصل اسمه عمرو بن مرة البكري وقس على ذلك القاب الخلفاء بعد الاسلام فان اكثرهم يعرف بلبقه كالفاروق والصديق والمنصور والرشيد والمأمون وغيرهم

فاذا اعتبرنا شيوع التسمية باسماء الحيوانات او التلقيب بها وامكان بقائها وذهاب الاسماء الاصلية مع ميل العرب من فطرتهم الى ذلك فوجود بضعة وعشرين اسماً حيوانيا بين مئات من اسماء القبائل لا يعدُّ شيئاً غريباً

التلقيب بصيغة الجمع

على اننا رأينا صاحب طوتمية العرب يعلق اهمية كبرى على تسمية بعض القبائل بجمع اسماء الحيوانات مثل الانمار والكلاب والاراقم والضباب فعندهُ ان وجود هذه الاسماء بصيغة الجمع لا ينطبق على تفسيرنا من حيث تليقب اب القبيلة بلقب يبقى و يذهب اسمه الاصلي . و يرى ان هذه الصيغة دليلٌ قويٌّ على الطوتمية لان ابناء قبيلة النمر يعدُّون انماراً وابناء قبيلة كلب يعدون كلاباً على مقتضى شروط الطوتمية

والجواب على ذلك ان التلقيب بصيغة الجمع للقبيلة كان شائعاً عند العرب مثل شيوع التلقيب بصيغة المفرد للفرد . وكانوا يلقبون القبيلة بصفة عامة تشترك فيها او يغلب شيوعها بين افرادها كالكرم والبخل والحلم والغدر ونحو ذلك . فلما انتشر الاسلام وضعوا لاهل الاقاليم اوصافاً يمتاز به بعضهم عن بعض

فمن امثلة اوصاف القبائل في صدر الاسلام ان معاوية سأل دغفلاً النسابة ما تقول في بني عامر بن صعصعة قال اعناق ظباء واعجاز نساء وقال فما تقول في بني اسد قال عافة قافة فصحاء كافة قال فما تقول في بني تميم قال حجر خشن ان صادفته آذاك وان تركته اعفاك . قال فما تقول في خزاعة قال جوع واحاديث قال فما تقول في اليمن قال سيود

ايوك ٠ ومن هذا القبيل ان الحجاج سأَل ابن القرية عن قبائل العرب فوصف كلاًّ منها بما امتازت بهِ وليس في وصفه مجون قال :

قريش — اعظم القبائل احلاماً واكرمها مقاماً
بنو عامر — اطولها رماحاً واكرمها صباحاً
بنو سليم — اعظمها مجالس واكرمها محابس
ثقيف — اكرمها جدوداً واكثرها وفودا
بنو زبيد — الزمها للرايات وادركها للثارات
قضاعة — اعظمها اخطاراً واعظمها نجارا وابعدها آثارا

وهكذا حتى اتي على معظم القبائل ثم وصف الاقاليم مما لا محل لهُ هنا

وعلى هذا النمط كانوا يلقبونهم باسماء حيوانات يغلب في طباعها الخلة التي اشتهرت تلك القبيلة بها وقد يذهب الاسم الاصلي ويبقى اللقب وحده وتعرف القبيلة بهِ كما حدث بالانمار فانها قبيلة من نزار لقبت بذلك لاشتهار اهلها بالقنص كانهم انمار في الوثوب على الفريسة قال النابغة من معلقتهِ :

اهوى لهُ قانص يسعى باكلبه — عاري الاشاجع من قناص انمار [1]

وكذلك الاراقم قبيلة من بني تغلب لقبوا بذلك لان عيونهم شبهت بعيون الحيات الاراقم فعرفوا بهذا الاسم [2] والعنابس اي الاسود لقبوا بذلك لشجاعتهم ٠ وقد يطلق لقب واحد على غير رجل او غير قبيلة وتعرف كل قبيلة باسمها الاصلي كالاراقم المتقدم ذكرها فانها لقب لجشم ومالك وعمرو وثعلبة والحرث ومعاوية بني بكر بن حبيب من تغلب [3]

وليس تلقيب القبائل على هذه الصورة خاصًّا بالعرب الجاهلية بل هو شائع في عرب هذه الايام ٠ واشهر ما تداولته الالسن من هذا القبيل تلقيب النقاش لاهل لبنان في اواسط القرن الماضي اذ ارسلتهُ الدولة العثمانية لمسح لبنان واحصاء سكانه وكان ظريفاً وفيهِ دعابة فكان اذا نزل القرية او البلد لقب اهله باول تشبيه يتبادر الى ذهنهُ عند اقباله على ذلك البلد — واليك القاب بعض اهل القرى من اقاليم الغرب واكثرها اسماء حيوانات بصيغة الجمع

(١) جمهرة اشعار العرب ٥٤ (٢) الكامل للمبرد ١٢٧ (٣) المعارف ٣٣

اسم البلد	لقب اهله
اهل جباع	الشواح
« نيحة	النور
« بعذران	الثعالب
« المختارة	الذئاب
« عين قنية	الشواح
« عماطور	الديوك المزهرة
« المزرعة	البقر
« عينبال	الجحاش
« بعقلين	الغنم
« جديدة الشوف	الكلاب [1]

ولاهو خاص بالعرب بل يتناول بعض الامم المتمدنة فعند الاميركان في الولايات المتحدة لاهل كل ولاية لقب خاص على هذه الصورة :

اسم الولاية	لقب اهلها
Illinois	Luchers
Missouri	Pibers
Oragon	Webfoot
Ohio	Buckeye
Indiana	Hoosiers
New England	States Yankees
Albama	Yellow Limnor
Wisconsin	Badger

وجملة القول ان تسمية بعض القبائل باسماء حيوانية افراداً او جمعاً لا اهمية لها في ما نحن فيه لانهُ عاديٌّ وطبيعيٌّ في الاجيال القديمة والحديثة . و بالطبع لم تبق اهمية لما ذكروه من عبادة الحيوانات التي كانت شائعة في الجاهلية وان كانت في الحقيقة ليست من

(١) الهلال صفحة ٩٥ سنة ١٣

قبيل عبادة الحيوانات الطوتمية بل هي عبادة اصنام اقلها بشكل بعض الحيوانات واكثرها باشكال أُخرى . فهي من قبيل عبادة الاوثان وليست من الطوتمية في شيء لان اهل الطوتم لا يعبدون صنماً بشكل الحيوان بل يعبدون الحيوان نفسهُ ويقدسونهُ ويتجنبون اذاهُ كما تقدم وليس عند العرب شيء من ذلك -- على اننا نقول كلمة في اصنام العرب لا تخلو من فائدة :

اصنام العرب

من المشهور ان العرب وسائر الامم السامية اهل توحيد من فطرتهم واذا عبدوا صنماً فيغلب ان يكون ذلك الصنم دخيلاً عندهم ويصدق ذلك على العرب بنوع خاص لتوسطهم بين الامم الوثنية القديمة فقد كانوا في عهد جاهليتهم محاطين بالفراعنة في مصر والفينيقيين في الشام والاشوريين في العراق والاحباش في الحبشة • وكانت جزيرتهم طريق اهل الهند في التجارة الى مصر والشام • ودنوا اذا ذهبوا الى بلد مما يجاورهم للتجارة او للغزو ورأوا اهل ذلك البلد يعبدون صنماً يعتقدون فيه الكرامة حملوه معهم في رجوعهم ونصبوه في الكعبة او غيرها من مجتمعاتهم • واذا مرت بهم قافلة هندية ومعهم صنم يعبدونهُ في اثناء اسفارهم فربما أعجب العرب فاخذوه منهم أو اصطنعوا صنماً على مثاله • ولم يصل الينا من اخبار هذه الاصنام الاَّ نتف مشتتة يمكن الاستدلال بها على غيرها

واشهر من نقل الاصنام الى مكة في عهد الجاهلية رجل يسمونه عمرو بن لحي ذكروا انه غلب على مكة وأخرج منها جرهماً وتولى سدانتها وكان كاهناً فحمل اليها الاصنام من الآفاق فنقل هبل واساف ونائلة من البلقاء (١) ونقل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر من ساحل جدَّة (٢) واختصت كل قبيلة من القبائل المشهورة يومئذ بواحد منها فاصبح ود لقبيلة كلب وسواع لهمدان ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير • وكان ودّ على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر • ولو جمعت اصنام العرب لزاد عددها على مئة صنم ليس منها على صور الحيوانات الاَّ بضعة قليلة جدًّا • على انها اذا كثرت فقلما تؤيد برهاناً للاسباب التي قدمناها ولانها دخيلة كما رأيت — ولا نقول ذلك اعتماداً على رواية العرب فقط لان صاحبنا الاستاذ لا يثق من اقوالهم الا بما يؤيد برهانه ولكننا ننظر في هذه الاصنام نظراً تحليلياً عسانا ان نتوصل الى نتيجة فنقول :

(١) ابن هشام ٢٧ ج ١ (٢) ياقوت ٩١٤ ج ٤

﴿ هبل ﴾ هو اكبر اصنامهم ويسمونه الصنم الاكبر وذكروا انه كان مصنوعاً من نحاس وقيل من قوارير اي زجاج على هيأة رجل ضخم وكانوا يذبحون له ويستخيرونه في اسفارهم وحروبهم وسائر اعمالهم · ويظهر لنا ان هـذا الصنم من الهة الفينيقيين او الكنعانيين والادلة على ذلك :

اولاً — قول العرب انهُ جاءَهم من مواب بارض البلقاء حمله اليهم عمرو بن لحي الذي ذكرناه

ثانياً — ان لفظ هُبَل لا اشتقاق لهُ في العربية من معناه فهو غير مشتق من لفظ عربي وعندنا انهُ عبراني او فينيقي اصله « هَبَّعل » הבעל وهو اسم اكبر اصنام الفينيقيين او الكنعانيين ومن جاورهم من امم الشام كالموابيين والمديانيين والبابليين والليبيين · وكان للفينيقيين عشرات من الالهة يميزون منها الهين احدهما ذكر والآخر انثى ويسمون الذكر « هبّعل » والانثى « عشروت » ومعنى « بعل » في لسانهم السيد والاله والهاء في العبرانية اداة التعريف مثل « أل » العربية · فباضافة هذه الاداة الى بعل يريدون الاله الاكبر · والظاهر ان عمرًا المذكور لما قدم مواب اعجبته عبادة الموابيين لهذا الصنم وكانوا يستمطرونه و يستنصرونه فحمله الى مكة باسمه العبراني « هبعل » واما العين الزائدة فيسهل اهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصاً في لفظ « بعل » لان الكلدانيين كانوا يلفظونهُ « بل » باهمال العين وهو اسم هذا الاله عندهم · وربما كان الموابيون يلفظونها « هبل » فنقلها عمرو بن لحي كما كان يسمعها

ثالثاً — ان اساليب عبادة العرب هبل تشبه اساليب عبادة الموابيين هبعل · فقد كان الموابيون ينصبون هذا الصنم على التلال المرتفعة او سقوف البيوت و يذبحون له الذبائح من الحيوانات والآدميين و يحرقون له المحرقات و يستخيرونه و يفضلونه على سائر الهتهم وكذلك كان يفعل العرب لهبل · وكما ان هبعل اكبر اصنام الموابيين ومن جرى مجراهم فهبل اكبر اصنام العرب وكانوا ينصبونه فوق الكعبة

﴿ اساف ونائلة ﴾ ذكروا انهما صنمان الاول على صورة رجل والثاني على صورة امرأة حملهما عمرو بن لحي ايضاً من البلقاء فوضعهما على بئر زمزم بالكعبة ثم وضع احدهما على الصفا والآخر على المروة فربما كان هذان وهبل مثلثاً وثنياً والمثلثات الوثنية كانت شائعة عند الوثنيين في الازمنة القديمة · والغالب في هذه المثلثات ان يكون كل منها مؤلفاً من رجل وامرأة وغلام · وامثلة هذه المثلثات كثيرة عند المصريين القدماء والكلدانيين وغيرهم

يغوث جاء في تفسير الزمخشري انه على صورة اسد وان عمرو بن لحي نقله من جدة على ساحل البحر الى مكة . فاذا كان مجلوبًا من الخارج فالغالب انه من الحبشة او مصر لان جدة محطة المسافر من احداهما الى الحجاز . وقد وجدنا بين الهة المصريين صنمًا على صورة اسد او لبوءة يسمونه « تغنوت » ولا يخفى ما بين هذه اللفظة ولفظ يغوث من المشاكلة الصورية اذا اعتبرنا ان العرب كانوا يكتبون بلا نقط فاذا كتبوا « يعوب » التبس عليهم بين ان تقرأ يغوث او تغنوت او تعوت وكثيرًا ما وقع لهم ذلك حتى بعد تدوين التاريخ في ابان التمدن الاسلامي فامبراطور الروم الذي حارب به هرون الرشيد يسميه بعض المؤرخين يعفور والبعض الآخر نعفور والآخر نقفور وهو الصواب لان اسمه الروماني nicephorus الا يعقل ان يحدث مثل هذا الالتباس في عصر الجاهلية ؟ وعلى هذا المبدأ تحوّل اسم قايين الى قابيل وشاول الى طالوت وجليات الى جالوت وقورح الى قارون

ود وهذا الصنم قد وصفه ياقوت في معجمه فقال « انه على تمثال رجل كاعظم ما يكون من الرجال قد دبر عليه اي نقش عليه حلتان متزر بحلة ومرتد بحلة عليه سيف وقد تنكب قوسًا وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها سهام » فما اشبه هذا الوصف بوصف ملك من ملوك الفراعنة ذاهب للحرب على مركبته . وهو يشبه الهًا فينيقيًا (١) اسمه اشبو او سيس اله مصري . ولا يمكننا الجزم في ذلك وانما يظهر من وصفه انه اله غريب

وقس على ذلك سائر الاصنام وان كنا لا نطمع بردّها كلها الى اصولها ولا ان يكون كلامنا فيها يقينيًا او قطعيًا وانما هو من قبيل الترجيح وهذا يكفي في هذا المقام

الثأر والعائلة والحلف

ورأينا صاحب طوتمية العرب قد علق اهمية كبرى على اجتماع العرب للمطالبة بالثأر باسم القبيلة فعندهُ ان ذلك من بقايا الطوتمية لان القبيلة كانت قديمًا اذا قتل احد افرادها اشتركت كلها في المطالبة بدمه لانها تطالب بحق الاله الذي هو جدّها الاعلى (صفحة ٥٣ و٥٦) وان العرب ليس عندهم عائلة وانما آخر انسابهم الحي (صفحة ٢٣) ولا حاجة بنا الى التطويل في بيان فساد هذا التأويل بعد ان ظهر فساد المقدمات الاخرى . فالطلب بالثأر باسم القبيلة طبيعي في امم البادية وضروري لحفظ جامعة النسب ولولاها لم يكن لتلك الجامعة معنى . ولكن صاحبنا اجهد نفسه كثيرًا في التفسير والتعليل للتوفيق بين

(١) بغية الطالبين ١٦٠

المطالبة بالثار عند العرب ومطالبة اصحاب الطوتم بحق جدهم الاعلى . وهيهات ان يتأتى له ذلك الاَّ اذا ثبتت الطوتمية عند العرب فيمكن تفسير الثار بما فسره لا ان يكون هو من ادلة تلك الطوتمية يستعان به في اثباتها

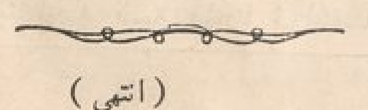
واما عدم وجود العائلة عند العرب فالقول به غريب وانكار العائلة عند العرب يقرب من انكار البديهيات او هو انكار ضوء الشمس في رابعة النهار . واغرب من ذلك استدلاله على طوتمية العرب بما يحدث عندهم من الترابط او التعاون بواسطة الحلف ونحوه فالتحالف قاعدة سياسية لا تزال جارية الى الآن عند ارقى الامم المتمدنة وانما يختلف عن الحلف عند قبائل العرب كما تختلف بداوة هؤلاء عن حضارة اولئك

خاتمة

ونختم المقال بكلمة في الطوتمية نفسها فنقول انها ليست من الامور الثابتة عمليا حتى عند القبائل المتوحشة الآن لان كثيرين من فلاسفة العمران ينكرونها وقد كتب في نقدها غير واحد منهم وخصوصاً سبنسر الفيلسوف الشهير وهو اوثق الثقات في علم الاجتماع البشري فقد جاء في كتابه « اصول العمران » ما معناه « يظهر لي ان اصل القول بالطوتمية خطاء في تفسير الالقاب والكنى اي ان المتوحشين كانوا يسمون انفسهم باسما بعض الحيوانات او غيرها من الكائنات الطبيعية على سبيل التلقيب ثم تشابهت هذه الاسماء على ابنائهم فظنوا تلك الحيوانات آباءهم حقيقة فعبدوها او قدسوها »

على ان القول بالطوتمية يخالف كثيراً من قواعد العمران الثابتة التي يؤيدها الاستقراء والمشاهدة كالمشهور في اصل عبادة السلف وعبادة الاجرام وكيف تدرج الانسان في كل منهما . ناهيك بمخالفة الطوتمية للحكم العقلي فكيف يخطر للانسان ان يعتقد تسلسلهُ من ثعبان او خنفسة او بصلة او نحو ذلك ؟ فالطوتمية من الآراء العلمية الضعيفة المبنية على الاستقراء الناقص وهي تحتاج الى تمحيص ونقد

فاذا اعتبرت سقوط الادلة على الامومة عند العرب كان القول بالطوتمية عندهم ساقطاً على ان الطوتمية نفسها قد اتضح سقوطها عندهم بقطع النظر عن الامومة لما تقدم من فساد آراء القائلين بها فكيف اذا تبين لنا ان الطوتمية بحد ذاتها من الآراء العلمية الحديثة التي تفتقر الى نقد وتمحيص ؟



(انتهى)